مجلة كلية الآداب بالوادي الجديد- مجلة علمية محكمة- ديسمبر ٢٠٢٢

الجهل الحكيم عند نيكولاس الكوزي

د.محمد أبو المجد محمد قناوي(*)

ملخص البحث:

يهدف هذا البحث إلى بيان مفهوم الجهل الحكيم عند نيكولاس الكوزي، فيتناول في البداية التعريف بنيكولاس الكوزي وأهم مؤلفاته وأهمية دراسة فلسفته وتحديد موقعه من الفلسفة الوسيطة وفلسفة العصر الحديث، ثم يتطرق البحث إلى تحديد طبيعة الجهل الحكيم ومعناه، كذلك إظهار مدي ارتباط المفهوم بالمعرفة الإلهية ومن ثم بيان حدود المعرفة وأدواتها، وعلاقة المفهوم بالطبيعة ونظرية المعرفة إجمالًا. كما يتطرق البحث إلى توضيح الصلة بين مفهوم الجهل الحكيم الكوزاني والسابقين عليه من فلاسفة العصر الوسيط أو الفلاسفة اليونان. وقد توّصل الباحث إلى عدة نقاط مهمة من سياق هذه الدراسة، أبرزها: أن فلسفة نيكولاس الكوزي مثّلت حلقة أخيرة من حلقات فلسفة العصور الوسطى، جمعت في طياتها عناصر مختلفة من الفلسفات السابقة عليه، وتوصلت الدراسة إلى تحديد معنى الجهل الحكيم -كما رآه كوزا- وبيان تعريفه وتحديد المقصود بمصطلحات مثل اللانهائي والمطلق والحد الأقصى.

كلمات مفتاحية: نيكولاس الكوزي، الجهل الحكيم، المطلق، الحد الأقصى، اللاهوت السلبي.

Nicholas' of Cusa Learned Ignorance

Abstract:

This research aims to clarify the concept of wise ignorance according to Nicholas of Cusa. It initially deals with the definition of Nicholas of Cusa and his most important works and the importance of studying his philosophy and determining his position in medieval and modern philosophy. Then a statement of the limits of knowledge and its tools, and the relationship of the concept to nature and epistemology in general. The research also deals with clarifying the link between the concept of ignorance, the wise Al- Cusanus, and its predecessors from the medieval or Greek philosophers. The researcher reached several important points from the context of this study, most notably: that the philosophy of Nicholas of Cusa represented the last episode of medieval philosophy, which collected various elements from the philosophies that preceded him, and the study reached to determine the meaning of wise ignorance as seen by Cusa and to clarify its definition and identification. It is meant by terms such as infinite, absolute, and max.

Keywords: Nicholas of Cusa, wise ignorance, absolute, maximum, negative theology.

(*) مدرس فلسفة العصور الوسطى، كلية الآداب جامعة جنوب الوادي

مقدمة

يبدو أن فيثاغورث كان أكثر حكمة من غيره عندما وصف الحكيم أو الفيلسوف بأنه محب للحكمة، ويرجع ذلك لقناعته بأن الوصول للحكمة في ذاتها أمر من أمور الإلهة، وعليه يصبح الفيلسوف ذلك الساعي دوماً لإدراك الحكمة لتيقنه بأنه مفتقر إليها. وقد أصاب سقراط عندما ربط بين الحكمة والعلم ووضح أن الفضيلة تكمن في سعي الفيلسوف لإدراك الحكمة. وقد صدق جُل المتصوفة عندما ربطوا بين جهد الإنسان وعجز العقل عن تخطي الحجب التي تفصل بين معرفة العبد العاشق والمريد الناسك وحقيقة الذات الإلهية دون عون وتلطفاً منه لكشف العتامة وإزالة ستائر الجهل أمام الساعي لرؤية الإله. تلك كانت الأفكار والتصورات الفلسفية التي شكلت بنية المصطلح الذي وضعه فيلسوفنا للتعبير عن قدرة العقل الإنساني على معرفة الإله، وأن الحكيم وحده هو الذي يعترف بعجزه وجهله بجوهر حكمة الذات الإلهية.

ويناقش هذا البحث مفهوم الجهل الحكيم عند نيكولاس الكوزي، والذي يعد أحد أهم المفاهيم التي تنتمي إلى حقل اللاهوت الفلسفي في العصور الوسطى المتأخرة، وهي المرحلة التي مر فيها الفكر الفلسفي والإنساني عمومًا بمرحلة انتقالية من (اللاهوت الفلسفي إلى فلسفة اللاهوت)، تلك الفترة المتعلقة بانقضاء مرحلة العصور الوسطى بتصوراتها الكلية الميتافيزيقية الدينية وصولًا إلى مرحلة فلسفة عصر النهضة أو الفلسفة الحديثة، وقد أثار مفهوم الجهل الحكيم (بالمعنى السابق) جدلًا كبيرًا في الأوساط الفلسفية واللاهوتية على حد سواء؛ باعتباره أحد الطرق المؤدية إلى معرفة الإله والطبيعة، وقد مثّل هذان الموضوعان بالتحديد ركيزة أساسية من ركائز تصورات الفلاسفة التي أسهمت في العبور من فلسفة العصور الوسطى إلى فلسفة العصر الحديث.

لذلك نحتاج إلى تغيير وجهة النظر التي ترى أن فلسفة العصور الوسطى فترة منقطعة عن التاريخ الإنساني ويجب تجاوزها وصولًا إلى عصر النهضة الإنسانية؛ وحجتنا في ذلك أن الجدالات والمناقشات التي دارت في تلك الفترة والمتعلقة منها بالجدل عن الإله – على الأخص– كوّنت تربة خصبة نمت عليها وجهات نظر الفلاسفة حول موضوع محددات الفكر السليم وغير السليم لمعرفة الإله الخالق في العصر الحديث. وهذا ما فعله نيكولاس الكوزي بالتحديد، والذي يُعد من حلقات الوصل بين العصر الوسيط وعصر النهضة، كما أنه من واضعي نهايات جدالات العصر الوسيط أو – إن صح التعبير– من أصحاب الكلمة الأخيرة في فلسفة العصر الوسيط. فقد كان طموحه الرئيس يكمن في وضع حد مبكر للخلافات الفلسفية واللاهوتية التي كانت في ذلك الوقت تزداد خطورة على وحدة الكنيسة، ومن ثم وضع تصوّر مقنع حول مسألة إمكانية معرفة الإله من عدمه. وقد تميزت محاولة الكوزي عن أقرانه من فلاسفة العصر الوسيط باستنادها إلى وسائل

مجلة كلية الآداب بالوادي الجديد- مجلة علمية محكمة- ديسمبر ٢٠٢٢

فلسفية اعتمدت على استدلالات عقلية، بتصورات رياضية تعزز قدرة العقل على الوصول إلى معرفة واعية عن الإله. حيث مثلّت فكرته عن الجهل الحكيم إحدى الطرق المؤدية إلى إنهاء الجدل والخلاف حول موضوع الإله في العصر الوسيط ومن ثم العبور إلى فلسفة العصر الحديث. وذلك وفق ما ذكره الفيلسوف المؤرخ الفرنسي إتين جلسون (١٨٨٤/١٩٧٨م) في كتابه الرائع " وحدة التجربة الفلسفية The Unity of Philosophical Experience حين ذكر أنه بمجرد أن تخلى الأكاديميون عن كل أمل في الإجابة على المشكلات الفلسفية في ضوء العقل الخالص، أوشكت المهمة الطويلة والرائعة للفلسفة الوسيطة على الانتهاء.

وهنا نسعى إلى توضيح المفاهيم التي استخدمها الكوزي في صياغة نظريته عن الجهل الحكيم، مثل معنى الجهل الحكيم، والمقصود باللاهوت السلبي والفرق بينه وبين اللاهوت الإيجابي في عملية وصف الرب، ثم إيضاح طبيعة مفاهيم من قبيل اللانهائي والحد الأقصى المطلق والحد الأقصى المركب، وطبيعة الوحدة الإلهية، ومعنى الفصل بين الطبيعة الإلهية والمخلوقات.

ومن جوانب أهمية دراسة فلسفة نيكولاس الكوزي أن فلسفته تمثل مزيجًا من أفكار متعددة جمعت في طياتها تأثيرًا أفلاطونيًا معتمدًا فيها منهجًا رياضيًا منظمًا، ورؤية صوفية ألمانية متأثرة بالفيلسوف اللاهوتي الألماني "إكهارت" (حوالى١٢٦٠- ١٣٢٧) وبطريقة المتصوفة الألمان، كما حوت فلسفته عناصر أفلاطونية محدثة، واعتمد على قراءة واعية لفلسفة القديس أوغسطين (٣٥٤-٤٣٠م)، وديونيسيوس الأريوباجي، وبروقلس، والفيلسوف الإيرلندي جون سكوتوس أريجينا (٨١٥- ٨٧٧م) ، استطاع في النهاية توليف كل هذه العناصر ليخرج منها نظرية مترابطة عن الجهل المعرفي الحكيم، يضع فيها تصورًا سليمًا عن حدود العقل في معرفة الإله اتسم بالعمق الفلسفي، مبتعدًا في الوقت نفسه عن النظرة الهرمية التقليدية عن طبيعة العلاقة بين الرب ومخلوقاته. كما مثلت نظريته عن الجهل الحكيم احدى طرق اصلاح ما اعترى لاهوت العصر الوسيط من جمود ونظرة تقليدية تفتقر إلى التجديد، حين وضع تصوَره عن الإله في إطار فلسفي لا يتوقف في صياغته على المفاهيم الدينية.

أما عن تساؤلات الدراسة فقد جاءت كالتالي: ما المقصود بالجهل الحكيم عند نيكولاس الكوزي؟ وهل هو الوسيلة الأنسب للوصول إلى المعرفة الإلهية؟ وهل الجهل الحكيم يعني عدم المعرفة؟ وهل لهذه الفكرة أصول لدى السابقين عليه أم أنها فكرة كوسيلة أصيلة؟ ما المقصود بمصطلحات الحد الأقصى المطلق، والحد الأقصى المركب، والحد الأدنى؟ ما العلاقة بين تجسد المسيح ودوره في حصول الإنسان على الاتحاد الكامل بالإله؟ أخيرًا هل نجح فيلسوفنا في التوّصل إلى صيغة محددة عن معرفة الإله وفق مفهومه عن الجهل الحكيم؟

منهج الدراسة

تستخدم الدراسة بحكم طبيعتها المنهج التحليلي والمقارن والنقدي؛ لتحليل آراء وأفكار الكوزي وردها إلى أصولها الأولى للوقوف على مدى أصالتها، والمنهج المقارن لمقارنة أفكاره مع أفكار السابقين عليه وإظهار الفوارق بين تلك الأفكار، واستخدام المنهج النقدي لإبداء الرأي في مدى اتساق الأفكار المطروحة.

أقسام الدراسة:

- مقدمة
- حياته ومؤلفاته.
- أهميته ومكانته وأثر أفكاره في اللاحقين عليه.
- ماهية الجهل الحكيم.
- العقل الإنساني وتصور الحد الأقصى.
- خاتمة.

• حياته ومؤلفاته

كان نيكولاس من الكوزي (١٤٠١–١٤٦٤م) فيلسوفًا مهمًا في القرن الخامس عشر، ورجل دولة كنسي، وعالم رياضيات، ومحاميًا قانونيًا، ودبلوماسيًا بابويًا. يُعرف أيضًا باسم نيكلاس كريبس Niclas Krebs ونيكولاس كوزانوس Nicolaus Cusanus، ولد عام ١٤٠١ م في بلدة كويز Cues الألمانية (المعروفة الآن باسم برنكسل كويز Bernkastel–Kues) على ضفة نهر موزيل Moselle River، وتسمى والدته كاترينا رومر Catherina Roemer ، أما والده فهو يوهان كريبس Johann Krebs (أو كريفت)، الذي كان رجلاً ثريًا نسبيًا؛ حيث كان يعيش ضمن الطبقة الوسطى المزدهرة كمالك سفينة وتاجر.[١] وقد سلك نيكولاس طريق رجال الدين، حيث أقام في أبرشية ترير Trier Diocese ، ودرس في جامعة هايدلبرغ عام ١٤١٦م، ثم انتقل إلى إيطاليا ودرس في جامعة بادوفا، وحصل على الدكتوراه عام ١٤٢٣م.[٢] مما سمح له بتطوير الأدوات التي من شأنها أن تسمح له بالتعبير عن رؤيته التوفيقية للكنيسة، والتي سجل من خلالها حضورًا مهمًا ذا مستوى رفيع في حركة إصلاح الكنيسة، وغادر بادوفا بعد جولة في إيطاليا، ثم دخل في الخدمة

1 - Clayton J. Drees: The Late Medieval Age of Crisis and Renewal, 1300-1500: A Biographical, Greenwood Publishing Group, U.S.A, 2001, p 368.

2 - Henrik Lagerlund: Encyclopedia of Medieval Philosophy: Philosophy Between 500 and 1500, Springer Science & Business Media, Germany, 2010, p 878.

مع رئيس أساقفة تريز، وتلقى استحقاقاته الكنسية الأولى.[٣] وفي عام ١٤٢٥م التحق بجامعة كولونيا لدراسة الفلسفة واللاهوت، وهناك تعرف على أفكار ديونيسيوس الأريوباجي الزائف Pseudo-Dionysius the Areopagite (أواخر القرن الخامس إلى أوائل القرن السادس الميلادي) وألبرتوس ماجنوس أو ألبرت الكبير Albertus Magnus (حوالي١٢٠٠- ١٢٨٠م) ورامون لول Ramon Llull (حوالي ١٢٣٢ -١٣١٥م)، وبعد الانتهاء من دراسته بدأ نشاطه القانوني خلال أعوام ١٤٣١-١٤٣٧م حيث شارك في مجلس بازل، وفي عام ١٤٣٣م وضع مؤلفه المعنون بـ"الوفاق الكاثوليكي De concordantia catholica" الذي جادل فيه بأن سلطة المجلس لها الأسبقية على سلطة البابا، لكنه غيّر مواقفه وانحاز إلى جانب البابا في عام ١٤٣٦م، وفي عام ١٤٣٨ أرسله البابا أوجينيوس الرابع عضوًا في وفد من ثلاثة رجال إلى القسطنطينية بغرض إقامة عملية تؤدي إلى إعادة توحيد الكنائس الشرقية والغربية. وقد أدى نشاطه إلى نجاح مؤقت، وقد أفادته الإقامة في القسطنطينية من ناحية نشاطه العلمي؛ فقد اكتشف هناك بعض المخطوطات اليونانية المهمة. ثم شارك بين عامي ١٤٣٨ و ١٤٤٨م في عدة بعثات إلى ألمانيا كمبعوث بابوي، ثم عيَّنه البابا نيكولاس الخامس كاردينالًا تقديراً لعمله كمبعوث بابوي عام ١٤٤٨م، ثم أصبح أسقف بريكسون (بريسانون الآن) في عام ١٤٥٠م، ولم يتمكن من تولي مهامه هناك سوى لمدة عامين وكان السبب هو معارضة دوق النمسا، ثم أرسله البابا مندوبًا بابويًا إلى ألمانيا الشمالية وهولندا.[٤] وفي بريكسين بدأ نيكولاس في إصلاح الكنيسة المحلية، مما تسبب له في المتاعب، وفي عام ١٤٦٠م تم سجنه من قبل الحاكم المحلي سيغيسموند، ثم أُطلق سراحه وترك أبرشيته واستقر في روما، وتوفي في تودي Todi عام ١٤٦٤م.[٥]

- **مؤلفاته:**

تلقي نيكولاس الكوزي تعليمًا استثنائيًا، وكتب في مجموعة واسعة من الموضوعات ذات الذوق والأصالة، وقد امتلك واحدة من أكبر المكتبات الخاصة في عصره. وتُظهر هذه المكتبة بالتأكيد العلاقة بين اهتماماته والعالم الثقافي الأكبر لعصر النهضة. ولا يزال من الممكن زيارة المكتبة المحفوظة في غرفة فوق الكنيسة الصغيرة في مستشفى القديس نيكولاس، والتي أسسها في مسقط رأسه في موزيل. وتحتوي المكتبة على خزانة لأعمال أرسطو وتوما الأكويني ورامون لول،

3 - Simon J.G. Burton, Joshua Hollmann, Eric M. Parker : Nicholas of Cusa and the Making of the Early Modern World, BRILL, 2019, p p 16, 17.

4 - Roman Murawski: Between Theology and Mathematics. Nicholas of Cusa's Philosophy of Mathematics, 2016 Studies in Logic, Grammar and Rhetoric, Volume & Issue: Volume 44 (2016) - Issue 1 (March 2016), p 96.

5 - Ibid: p 97.

وديونيسيوس الزائف، والقانون الروماني والقانون الكنسي وهي مجموعة من المتطلبات لأي لاهوتي من العصور الوسطى أو رجل كنيسة نشط.[٦] وتستجيب كتاباته التي يصعب حصرها لمجموعة واسعة من التيارات الفكرية، فتجد فيها العبقرية الإشراقية للأفلاطونية المحدثة المسيحية، وباطنية الصوفيين الشماليين مثل رولمان ميرسون Rulman Merswin (حوالي١٣٠٧– ١٣٨٢م) والمعلم إكهارت Meister Eckhart، والتألق اللطيف للإنسانية الإيطالية.[٧] بطريقة ما وجد وقتًا وسط رحلاته ليس فقط لكتابته عشرين رسالة في اللاهوت الصوفي والفلسفة الأفلاطونية؛ بل ما يقرب من ثلاثمائة عظة، إلى جانب عشرات الكتب المليئة بالبراهين الهندسية التأملية.[٨] إلى جانب عمله "في الوفاق الكاثوليكي De concordantia catholica، ودفاعه عن الوفاق conciliarism، عندما كان عائدًا من اليونان بالسفن، تلقى نيكولاس "ما أعتقد أنه هدية سامية من أب الأنوار مانح كل هدية مثالية"، أطروحته المسمّاة "الجهل المكتسب أو الحكيم أو المتعلّم De Dicta ignorantia (١٤٤٠م) وهي تطور لنسخته الفريدة من اللاهوت السلبي، تبعها عدد كبير من النصوص اللاحقة، بدءًا من الأطروحات المعرفية عن الأفتراضات De coniecturis، وأعمال صوفية أخرى مثل رؤية الإله (De visione Dei)، وتضمنت المجموعة الأخيرة من أعماله أيضًا حوارات فلسفية مثل كتابه "عن الإله المحتجب" (De Deo abscondito)الدفاع عن مقولة الجهل (Apologia Decta ignorantiae)، وأحد أقدم نصوص عصر النهضة الدين العلمانى والايمان (De saeculari religione et fide) (١٤٤٥م)، وبنوة الإله De filiatione Dei [٩].

لكن كان أول عمل مهم نُشر لنيكولاس هو الجهل الحكيم De docta ignorantia (١٤٤٠م) وربما يكون هذا هو أفضل أعماله الفلسفية المعروفة، والذي جادل فيه بالطبيعة غير المكتملة للمعرفة الإنسانية. كما أن له مؤلفات رياضية عدة أبرزها: التحولات الهندسية De transformibus geometricis (١٤٤٥م)، عن الحساب الكامل De arithmeticis completeis(١٤٤٥م)، تربيع الدائرة De circuli quadratura (١٤٥٠م)، عن الرياضيات الكاملة De mathematicis completeis (١٤٥٣م) ، تربيع الدائرة القيصرية (١٤٥٧م) De

6 - Michael Edward Moore: Nicholas of Cusa and the Kairos of Modernity: Cassirer, Gadamer, Blumenberg, punctum books ¬ brooklyn ny, New York, 2013, p 12.

7 - Michael Edward Moore: Op. Cit: p. 14.

8 - David Albertson: mathematical Theologies: Nicholas of Cusa and the Legacy of Thierry of Chartres, (Oxford Studies in Historical Theology) 1st Edition, Oxford University Press, U.S.A, 2014, P 1.

9 - Nancy J. Hudson: Becoming God: The Doctrine of Theosis in Nicholas of Cusa, The Catholic University of America Press Washington, D.C., U.S.A, 2007, p.2.

De mathematica (١٤٥٨م) الكمال الرياضي ،caesarea circuli quadratura perfectione، خيار ذهبي في الرياضيات (١٤٥٩م) Aurea optitio in mathematici ، كما كتب شرح استقامة المنحنى Declaratio rectilineationis curvae وفى قياس واحد لمستقيم ومنحني De una recti curvique mensura لكن تواريخهما غير معروفة وكان مهتمًا فيهما بالهندسة والمنطق.[١٠] وقد لاقت نظرية المعرفة اهتمامًا خاصًا في أعماله الفلسفية؛ فكتب عن هذا الموضوع في أعمال مثل الافتراضات De conjecturis (١٤٤٠- ١٤٤٤م) وخلاصة وافية Compendium(١٤٦٤م).[١١] نلاحظ من كل تلك المؤلفات المطروحة مدى ثراء وعمق تفكير الكوزي وسعة اطلاعه واهتمامه الكبير بالمنهج الرياضي في البحث المعرفي، وتأثره بالمدرسة الفيثاغورية والتأويل الرمزي الهندسي للأفكار والتصورات.

- **أهميته ومكانته وأثر أفكاره في اللاحقين عليه.**

جاء نيكولاس الكوزي في منعطف خاص في الفكر الغربي، والذي وُصف على أثره بأنه آخر فلاسفة العصور الوسطى وأول رواد العصر الحديث.[١٢] لذلك مثلت شخصيته جزءًا مهمًا من الدراسات والجدالات حول أصول الحداثة الأوروبية بين الفلاسفة والمؤرخين، وفي هذا السياق، أُثير الجدل عما إذا كان يجب اعتبار الكوزي أول مفكر حديث، أو على العكس من ذلك اعتباره آخر عقل عظيم في العصور الوسطى. وقد كان التشكيك في حداثة نيكولاس الكوزي طريقة لفهم معنى الحداثة وشكلها، فقد جاء تصنيفه في جانب القرون الوسطى من الخط الفاصل بين العصور الوسطى وعصر النهضة والإصلاح؛ بسبب حقيقة أن نيكولاس وإن كان من أوائل المفكرين الأوروبيين الذين شاركوا في وضع دراسة نقدية جادة للنصوص الكلاسيكية، إلا أنه فعل ذلك لأغراض اللاهوت وخدمة احتياجات الكنيسة فحسب، وهو ما لم يبعده عن خط اهتمامات دراسات العصر الوسيط.[١٣]

وقد حدث أنه بعد أربعمائة عام من وفاته، أصبحت أفكاره الجريئة نقطة محورية للمناقشات بين الفلاسفة الألمان في القرن العشرين حول أصول الحداثة، والتي شارك فيها بشكل بارز إرنست كاسيرر Ernst Cassirer (١٨٤٧-١٩٤٥م)، هانز - جورج جادامر Hans-Georg Gadamer (١٩٠٠-٢٠٠٢م) وهانس بلومنبرج Hans Blumenberg (١٩٢٠-١٩٩٦م)، وقد

10 - Roman Murawski: Op. Cit, p 99.
11 - Ibid: p 99.
12 - Chibueze C. Udeani: Communication Across Cultures: The Hermeneutics of Cultures and Religions in a Global Age, The Council for Research in Values and Philosophy, U.S.A, 2008, p 40.
13 - Michael Edward Moore: Op. Cit, p p 1,2.

تمحور الجدل بينهم في الاقتناع المشترك بأن الفلسفة والتاريخ متشابكان، رغم حقيقة أن هؤلاء المفكرين الثلاثة ينتمون إلى اتجاهات مختلفة من التقليد الفلسفي الألماني. وقد تصوّر هؤلاء الفلاسفة "حداثة نيكولاس الكوزي" كمشكلة في تاريخ الوعي الأوروبي وتاريخ العلم والفلسفة؛ لذلك احتل مركز الصدارة بشكل لافت في الجدل الفلسفي حول الحداثة.(١٤) وقد ساهمت أعماله في تحديد العتبة الفاصلة بين "العصور الوسطى" والعصر الحديث، حيث نسمع بعد وقت قصير من وفاته لأول مرة تعبير العصور الوسطى، وذلك في كتاب "تأبين" الذي وضعه جيوفاني أندريا دي بوسيGiovanni Andrea Bussi (١٤١٧–١٤٧٥م)، الذي كان سكرتيرًا له في الفترة من ١٤٥٨ إلى ١٤٦٤ م ويظهر كطرف مشارك في محادثاته، ويُعد هذا العمل جزءًا من رسالة إهداء موجهة إلى البابا بيوس الثاني تم أصدارها في عام ١٤٦٩م.(١٥)

ومن أوجه أهمية الكوزي كونه جمع في تفكيره الأصيل بوصفه من رجال الكنيسة وأصحاب النزعة الإنسانية وبوصفه فيلسوفًا ورجلًا من رجال العمل الجاد بين عناصر مأخوذة من التراث وبين الاهتمامات الجديدة الشائعة في عصره، وفي جامعة هيدلبرج تلقي نظريات أوكام Ockahm (حوالي ١٢٨٤ – ١٣٤٧م) ، على حين تلقي في «بانو» معرفة عميقة بأرسطوAristotle (٣٢٢ ق.م – ٣٨٤ ق.م) ولا سيما في حديثه عن الفلسفة الأولى والتمييز بينها والمعرفة الطبيعية للوجود، وتعرف في هذه الجامعة الأخيرة أيضا بأحدث المناهج العلمية، وبالتراث الرياضي، وبتيار الفكر الأفلاطوني المحدث، وانغمس بحماسة في كتابات ديونيسيوس وبروقلس proclus (٤١٢–٤٨٥م)، وأوغسطين Augustin ، وأريجينا Johannes Scotus Eriugena، ومدرسة شارتر، وكذلك كتابات إكهارت والمتصوفة الألمان.(١٦) وأراد من وراء ذلك أن يؤسس اللاهوت المسيحي على أساس عقلاني وأن يوفق بين التقاليد المدرسية المتنافسة، واعتبر المنطق الأرسطي الذي استخدموه، والذي يحكمه قانون عدم التناقض منغلقًا؛ فمن خلال هذا المنطق تكون القضية إما صحيحة أو خاطئة، وبالتالي يُصبح الإله إما لانهائي أو محدود؛ وهو ما ينتج عنه أنه إذا كان أحد اللاهوتيين على حق فلا بد أن الآخر مخطئ، وقد أقر نيكولاس المنهج الديالكتيكي dialectical method وسيلة للتوفيق بين وجهات النظر المتعارضة في هذا الشأن.(١٧)

14 - - Michael Edward Moore: Op. Cit,p 8.

15 - Karsten Harries. Nicholas of Cusa. On Learned Ignorance, Yale University, U.S.A, Fall Semester 2015, P.17.

١٦ - جيمس كولينز: الإله في الفلسفة الحديثة، ترجمة فؤاد كامل، ط١، دار آفاق، القاهرة، ٢٠١٩م، ص ١١.

17 - John W. Cooper: Panentheism--The Other God of the Philosophers: From Plato to the Present, Baker Academic, Italy, 2006, p.52.

من ناحية أخرى ساهمت بعض أفكاره في بزوغ فلسفة العصر الحديث، مثل عن الجهل الحكيم، وعن عدم التناسب اللامتناهي بين المحدود واللانهائي، وعن تطابق الأضداد في الإله، وعن حركية الأرض، ومفهومه عن كون الأرض غير محدودة. هذه المفاهيم الخمسة في حد ذاتها – تتفق مع العصر الحديث أكثر مما تتماشى مع العالم في العصور الوسطى؛ لذلك أصبح فكره علامة حدية رئيسة لا لبس فيها على الطريق إلى الحداثة. هذا هو السبب في أن هذه الموضوعات الخمس، –على وجه الخصوص–، تم دراستها باهتمام شديد من الفلاسفة المعاصرين.(١٨)

والخلاصة أن نيكولاس الكوزي هو أحد أكثر الفلاسفة إثارة للاهتمام في عصره. بطريقة ما هو في مراحل تطور (الفلسفة المدرسية أو اللاهوت الفلسفي)، لكنه يتطرق إلى الموضوعات التي تشير إلى الانتقال إلى الفلسفة الحديثة في الوقت نفسه. وإذا نظرنا إلى الفاصل الزمني بين أوكام وديكارت René Descartes (١٥٩٦–١٦٥٠م) نجده يقارب ثلاثمائة عام، وهي فترة تفتقد إلى الاستمرارية والاتصال بشكل كبير، وتمثل فجوة طويلة للغاية بين لحظتين من النضج الميتافيزيقي. في هذه الفترة، وُجد عدد قليل من المفكرين الذين حافظوا على الروح الأصيلة للفلسفة ومثلوا حلقة الوصل بين النقل والعقل أو العقل والإيمان والكوزي أحد هؤلاء الرجال.(١٩)

- **ماهية الجهل الحكيم:**

تنقسم دراسة فيلسوفنا في هذا الصدد إلى عدة جوانب، حيث تُظهر في شقها الأول مفهوم الكوزي للعقل البشري وعمليته المعرفية، بحيث يستعرض حدود المعرفة البشرية ويشرح سبب استنادها إلى التناسب، ويلخص السبيل الرمزي الذي يمكن للعقل البشري أن يسلكه لتجاوز الحدود، وهو أحد أبرز جوانب فلسفته. أما الشق الثاني فيدرس الخصائص المميزة التي تجعل العقل صورة إلهية؛ أي وحدة ثلاثية، تلك التي تجعله شبيهاً بالإله، وبالتالي تُبرز قدرته على استخدام الرياضيات في حرية فكرية. "وقد اشتهر الكوزي بمذهبه عن "الجهل الحكيم" (١٤٤٠م). والذي ينطوي على معرفة أننا لا نعرف الإله، وهذا يعني، تقنيًا، أنه لا يمكننا أن نعلن شيئًا عن الإله بشكل منفرد، لكن يمكننا معرفة الإله من خلال سلسلة من الدوافع المتناقضة (ومن ثم فإن الإله بمثابة مصادفة لأضداد")، ولكن هذا النوع من المعرفة يفوق قدراتنا البشرية المحدودة".(٢٠) والجهل الحكيم هو ثمرة لاهوته الديالكتيكي. والذي ينص على أننا لا نستطيع معرفة الإله في ذاته. لكن إذا أدركنا حدودنا،

18 - Peter A. French and Howard K. Wettstein ,and Bruce Silver.: Nicholas of Cusa (1401–1464): First Modern Philosopher?, Midwest Studies in Philosophy, Volume XXVI Blackwell Publishing, Oxford, 2002, p 14. .

19 - Julian Marias: History of Philosophy, Courier Corporation, U.S.A, 2012, p 197.

20 - Glenn Alexander Magee: Hegel and the Hermetic Tradition, Cornell University Press, Ithaca, New York, 2001, p 27.

فمن الممكن تشكيل مفهوم حقيقي عن الإله.(٢١) وتأتي هذه النظرة موافقة لما ذكره القديس بولس في رسائله المختلفة، ومنها رسالته إلى أهل رومية حين قال:" ٢٢وَبَيْنَمَا هُمْ يَزْعُمُونَ أَنَّهُمْ حُكَمَاءُ صَارُوا جُهَلاَءَ (٢٢)، أيضًا في رسالته الأولى إلى أهل كورنثوس:" ١٠نَحْنُ جُهَّالٌ مِنْ أَجْلِ الْمَسِيحِ، وذكر في موضع آخر من نفس الرسالة:" ١٤وَلكِنَّ الإِنْسَانَ الطَّبِيعِيَّ لاَ يَقْبَلُ مَا لِرُوحِ الإله لأَنَّهُ عِنْدَهُ جَهَالَةٌ، وَلاَ يَقْدِرُ أَنْ يَعْرِفَهُ لأَنَّهُ إِنَّمَا يُحْكَمُ فِيهِ رُوحِيًّا.(٢٣)

لذلك نبدأ بالسؤال، ماذا يعني نيكولاس بعبارة "الجهل الحكيم؟ من ناحية، يبدو أنه يعتقد أن الشخص الذي يعرف أنه لا يعرف هو أكثر حكمة من الذي يعتقد أنه يعرف، ومن ناحية أخرى يبدو أنه يشير ضمنيًا إلى أن عدم المعرفة يمنح نوع معين من المعرفة أيضًا، بحيث يمكن تعلم شيء ما من خلال عدم المعرفة، وكلما تعلمنا هذا الجهل بعمق كلما اقتربنا من الحقيقة.(٢٤) وفي سبيل ذلك آثر الكوزي استخدام الأسلوب الأفلاطوني مع تركيزه على الفكر الإبداعي ورفض الأسلوب الأرسطي بتأكيده على المنطق الاستقرائي والاستنباطي القائم على "قانون التناقض". وتصبح طريقة الجهل الحكيم بذلك ليست طريقة الحفظ والتلقين؛ بل هي أقرب للطريقة السقراطية في التهكم والتوليد، والتي أوضحها في كتابه "عن الافتراضات"، والذي تم الانتهاء منه أيضًا في عام ١٤٤٠م وتم اعتباره قطعة مصاحبة للجهل الحكيم On Learned Ignorance. وفي دفاعه عن الجهل المكتسب، يعرّف الكوزي صراحة طريقته على أنها طريقة سقراط، حين ذكر أن سقراط Socrates (٤٧٠ ق.م – ٣٩٩ ق.م) أبرع المثقفين الأثينيين في عصره، "من حيث أنه كان يعلم إنه كان جاهلاً في حين أن الآخرين الذين كانوا يتفاخرون بأنهم يعرفون شيئًا مهمًا على الرغم من جهلهم بأشياء كثيرة لم يعرفوا أنهم كانوا جاهلين.(٢٥) كما ذكر الكوزي كذلك أنه وجد مفهومًا مشابهًا لذلك الذي طرحه فيلون اليهودى Philo Judaeus (حوالي ٢٠ ق م – ٥٠ م) في كتابه " (المسائل) Quaestiones" والذي ذكر فيه أن "المعرفة الكاملة تختص بالإله فحسب، الذي تدعوه الروح كشاهد على حقيقة أنها بضمير نقي تعترف بجهلها؛ لأن الروح وحدها تعرف أنها لا تعرف شيئًا بلا كلل.(٢٦)

---

21 - John W. Cooper: Op. Cit, p.53.

٢٢ – القديس بولس: الرسالة إلى أهل رومية: ١: ٢٢.

٢٣ – القديس بولس: الرسالة الأولى إلى أهل كورنثوس: ٢: ١٤.

24 - James L. Heft, Reuven Firestone, Omid Safi: Learned Ignorance: Intellectual Humility Among Jews, Christians and Muslims, Oxford University Press, USA, 2011, p.p 39, 40.

25 - William F. Wertz, Jr.: The Method of Learned Ignorance, Schiller Institute, Inc. , U.S.A, Volume 4, Number 1, Spring1995, p 38.

26 - Ibid: p. 39.

وقد رأى الكوزي بأن جميع الفلاسفة المؤلهه يتفقون على أن العلة الأولى للعالم هو الإله –سواء كانت العلاقة بينهما مباشرة أو غير مباشرة–، علاوة على ذلك يصفون الإله بأنه المطلق، وإذا كان الإله هو المطلق، فإن قضية العالم على الأقل آمنة من أحكامنا؛ لأن المطلق هو فوق كل الأشياء والعلاقات؛ لذلك من غير المجدي لنا أن نلجأ إلى مبادئ الهوية والتناقض لكي ننسب شيئًا إلى الإله، أو ننكر شيئًا من طبيعته؛ لأنه – ببساطة– لا يوجد شيء لا يوجد فيه المطلق، ولكن لا يوجد أيضًا شيء غير مطلق بدون أن يكون في نفس الوقت كل شيء آخر. ومن الصحيح أن نقول، على سبيل المثال، أن الإله كائن لا يمكن تصور أعظم منه، متأثراً في ذلك بحديث القديس أنسلم (١١٠٩/١٠٣٣م) عن تصور الإله ولكن إذا كان هو المطلق فيجب أن يكون في نفس الوقت هو الموجود المتجسد (متأثراً بنظرية الحلول والإتحاد عند الصوفية)، وللسبب نفسه لا يمكننا تصوّر كائنًا ليس أصغر منه، نتيجة لذلك الإله هو ملتقى الأضداد، وبالتالي فهو فوق مبدأ الهوية ومبدأ التناقض، باختصار الإله لا يمكن تصوره.[٢٧]

وكان نتيجة تحليل الكوزي لكشوف فلاسفة الأفلاطونية المحدثة والمتصوفة أنه استعان ببعض الأساليب التي تطورت في الرياضيات، والتي يأمل من خلالها أن يضع أقوالنا الفلسفية عن الإله على أساس سليم وفي رائعته الفلسفية عن "الجهل الحكيم"، يضع نيكولاس ذلك السؤال العويص عما إذا كنا نستطيع أن نعرف شيئا على الإطلاق عن الإله؟. ويمكن أن نرى أن هذه القضية لم توضع لمجرد الإثارة المصطنعة من فحص طريقتنا العادية في معرفة الأشياء؛ بل تصبح المعرفة وفقًا لها وظيفة معيارية: إذ تعد المقارنة بين ما فهمناه فعلًا وبين الجوانب الأخرى من الأشياء هي موضوع النظر والتأمل. وفي عملية المقارنة هذه لا بد من اكتشاف علاقة نسبة بين المعروف وغير المعروف، حتى تتسع حدود المعرفة، فإذا سلمنا بتعاليم المسيحية عن الإله ووصفناه بالموجود الكامل اللامتناهي فلن تكون ثمة نسبة محددة أو علاقة نسبية بين الإله ونظام الموجودات المتناهية برمتها ومن ضمنها الإنسان بتصوراته ولغته؛ فإذا كان الإله لا متناهيًا حقًا بالمعنى الكامل.[٢٨] إلا بالمعنى السلبي (العدمي) أو غير المتحد فلا مناص من أن يظل مجهولا بالنسبة لنا، ولا سبيل إلى تسميته، أو على الأقل يبدو أن طرقنا المألوفة للمعرفة لا تمدنا بأي أساس للوصول إلى حقيقة كينونته وهكذا يتهيأ نيكولاس الكوزي لأن يأخذ مأخذ الجد ما اتفق عليه المتصوفة المسيحيون واللاهوتيون من أن الإله الكامل المقدس مجهول بالنسبة إلينا.[٢٩] وهو في

---

[27] - Etienne Gilson: The Unity of Philosophical Experience, Charles Scribner's Sons, New York, 1950, P.115.

[٢٨] - جيمس كولينز: الإله في الفلسفة الحديثة، مرجع سابق، ص ١١.

[٢٩] – نفس المرجع: ص ١٢.

هذا يتفق مع تعاليم ديونيسيوس الأريوباجي صاحب التأثير البالغ على التصوف الغربي، وخط التعاليم اللاهوتية الشرقية التي تصف علاقة الكائنات بالخالق من الناحية السلبية فحسب؛ فالإله غير معروف تمامًا، ولا يشبهه شيء ولا يمكن مقارنته؛ لذلك فهو يحوي المتناقضات ويجمع الأضداد في داخله؛ لأنه غير محدود ولانهائي ومطلق.

لكن يجب التنويه على أن الكوزي قد تلقى التعاليم اللاهوتية الصوفية لديونيسيوس بعد فحصها والاستعانة بها من قبل السابقين عليه، من خلال عدد من الشخصيات الأخرى في العصور الوسطى، مثل "رامون لول Raymond Lull" وتوما الأكويني Thomas Aquinas (١٢٢٥–١٢٧٤م) ومايستر إكهارت Meister Eckhart وعالم اللاهوت الكاثوليكي البلجيكي دينيس الكارثيوسي (١٤٠٢–١٤٧١م) Denys the Carthusian المعاصر للكوزي.[٣٠] وفي سبيل ذلك يربط الجهل الحكيم المبدأ الأول لكل الأشياء مع الحقيقة، كما هي في حد ذاتها، ويصفها بأنها لانهائية. وهو لم يقدم هذا البيان بشكل دوجماطيقي ولكن نتيجة لتجربة يمر بها البشر تعززها رغبتهم الطبيعية في المعرفة؛ لذلك تبدأ الرسالة عن الجهل الحكيم بمفارقة، حيث يبحث البشر عن الحقيقة التي تقودهم نحوها رغبة غير طبيعية.! ووسيلة تقدمهم هي قدرتهم على المعرفة، وهي قدرة تكشف عن نفسها كنسبة مقارنة، أي أن البشر يتقدمون في المعرفة من خلال مقارنة غير المعروف بما يعرفونه بالفعل. ومع ذلك، فإن الحقيقة بحد ذاتها لانهائية، بينما العقل البشري محدود، وبما أنه لا يوجد تناسق بين المحدود واللانهائي، فهل يجب أن نستنتج أن الرغبة الطبيعية التي تدفعنا إلى ذلك رغبة ساذجة؟.[٣١]

تفتح الإجابة التي قدمها نيكولاس الكوزي على هذا السؤال مشكلة جديدة: هي نهاية رغبة الإنسان في معرفة الحقيقة وهي أن نتعلم أننا لا نعرف شيئًا، وأن الحقيقة كما هي في حد ذاتها تتجاوز إدراك العقل البشري، وأنه لا يمكن رؤيتها إلا في الانعكاس، أي في الشبه، وبالنسبة للكوزي يكون ذلك الانعكاس، أو ذلك اللغز المحير، ليس سوى العقل البشري صورة الإله المخلوق الوحيد الذي بسبب طبيعته الفكرية يعكس وحدانية الإله في بساطته، بحيث توجه رغبته اللاطبيعية في الحقيقة العقل البشري نحو معرفة الذات، لكن هذه المعرفة الذاتية ليست معرفة عن بساطة الذات، بل هي معرفة بالذات نفسها.[٣٢] ويدلل الكوزي على صحة ذلك الادعاء في قوله: "إننا نري أن

30 - Louise Nelstrop ،Simon D. Podmore: Christian Mysticism and Incarnational Theology: Between Transcendence and Immanence, Routledge, London & New York, 2016, p.30.

31 - Paula Pico Estrada:Nicholas of Cusa on the Trinitarian Structure of the Innate Criterion of Truth, BRILL, Netherlands, 2021, p.105.

32 - Ibid: p.105.

هبة الإله حاضرة في كل الأشياء ترغب أن توجد بطريقة مثلى بقدر ما تسمح طبيعة كل شيء بهذا، ونرى أن كل الأشياء تعمل لتحقيق هذه الغاية، ولدينا أدوات تتكيف معها، ولديهم شعور فطري بالحكم عما يخدم الغرض المعروف، وحتى لا تمضى رغبتهم عبثًا؛ بل ليصلوا إلى السكينة المرجوّة في هذا الموضوع الذي تدفعه النزعة الطبيعة في كل شيء. ولكن إذا تبدلت الأمور بالمصادفة بطريقة ما، فإن هذه النتيجة يجب أن تحدث بالصدفة كما يحدث عندما يضلل المرض الذوق أو يؤدي الرأي إلى تضليل العقل؛ لذلك نقول إن العقل النقي الحر يعرف أنه على الطريق الصحيح بقدر ما يرغب بلا هوادة في الوصول إلى الحقيقة من خلال التدقيق في كل الأشياء بمَلَكته الفطرية في الاستدلال، وما لا يستطيع أي عقل سليم أن يحجب موافقته هو بلا شك الأكثر صحة؛ لذلك فإن كل أولئك الذين يمكنهم التحقيق والبحث يحكمون على المجهول نسبيًا، عن طريق المقارنة مع ما يعد مؤكدًا.[٣٣] وبالتالي، فإن الجهل الحكيم ليست عملية ملموسة ماديًا، بل هو رؤية فكرية حدسية، أي القوة التي من خلالها يستشعر العقل حدوده. ولا ينبغي أن يؤدي ذلك إلى الاعتقاد الخاطئ بأن الجهل الحكيم هو نهج، بمعنى مجموعة من القواعد التي يجب على المرء اتباعها لتحقيق جزء من المعرفة؛ بل هو المبدأ أو الفرضية التي تجعل كل المعرفة ممكنة، وبالتالي فإن الجاهلية الحكيمة لا تدعي أنها ممارسة في علم اللاهوت الإيجابي الذي يقوم– وفقًا للكوزي– على التشابه والتماثل بين المخلوقات والخالق؛ "بل تخمين رمزي قائم على معرفة أن الحقيقة على هذا النحو تظل غير مفهومة للعقل البشري .[٣٤] لذلك يُقر نيكولاس نفسه أن المعرفة تبدأ بالاعتراف بالكلي الجامع الذي يقوم عليه تعدد الأشياء القابلة للتمييز، والذي بناءً عليه يجب أن يسعى عقلنا إلى أنقى مفهوم ممكن عن الوحدة، بحيث يشمل جوهر الوحدانية بساطتها ويصبح أبسط شيء هو الأكثر تأكيدًا، وبالتالي من أجل الوصول إلى المعرفة المؤكدة، يجب على المرء أن ينتقل من الوحدة إلى التمايز، ومن البساطة إلى التعقيد، ومن الأبدي إلى العابر، وليس العكس.[٣٥]

وقد أوضح الكوزي بناء على هذا المفهوم أن المصادفة بين الأضداد مصطلح مجازي رمزي، يشير إلى أن الإله "اللانهائي اللامحدود غير معروف؛" لأنه لا يخضع للمقارنة، ومع ذلك من خلال تحفيز العقل الذي يمكن أن يصل البشر من خلاله إلى معرفة الإله بطريقة متعالية تترك

33 - Nicholas of Cusa on Learned Ignorance De Docta Ignorantia , Book I, edited by Paul Wilpert, revised by Hans G. Senger. Second edition, The Arthur J. Banning Press, U.S.A , 1985, .p1, ch1, p4.

34 - Paula Pico Estrada: Op. Cit, p.106.

35 - Erich Meuthen: Nicholas of Cusa: A Sketch for a Biography, translate by David Crowner, CUA Press, U.S.A, 2010, p.59.

الأشياء المحسوسة وراءها؛ حتى يرتقي القارئ إلى العقل البسيط. ويحدث ذلك حين نفهم اللامتناهي غير المفهوم، عن طريق "الافتراض"، أي تكوين مفاهيم أساسية حول المجال اللامتناهي من المجال المحدود، وهذا يعني أن الشكل المحدود يمكن اعتباره شكلًا "مركبًا" لانهائيًا، يساعد في عملية تخمين المجهول، وبالتالي يمكن للراغبين في معرفة الإله أن "يفترضوا من معرفتهم المحدودة مجال رؤية الإله اللانهائية، وفق رؤية صوفية لاهوتية تعبدية؛ لفهم ما لا يمكن فهمه من خلال منظور يعكس العالم الطبيعي، في مرآة الطبيعة الإلهية.(٣٦)

بعبارة أخرى، يجب أن تتضمن اللانهاية الحقيقية كل الواقع فبصفته كائنًا لانهائيًا، يجب أن يشمل الإله جميع الكائنات وجميع الاختلافات.(٣٧) وهنا يعني القول بأن كل الأشياء متداخلة "مع الإله، وأن لكل شيء على حدة معناه أو أهميته من خلال علاقته بالكل، وبالتالي كل شيء مرتبط بكل شيء آخر، وهذا يعادل القول بأن كل شيء هو نفسه الكون، مركبًا في مجموعة واحدة من العلاقات المتماسكة معًا في نقطة واحدة فريدة في الكون ".(٣٨) وهذا ما حدا بالبعض الذهاب إلى القول بأن نيكولاس الكوزي أحد الداعين إلى القول بوحدة الوجود، لكنه أنكر هذا الادعاء، وهو يفسر معنى توافق الأضداد والانطواء الإلهي، بما لا يدع مجالا للشك في مقاصده فيقول إن الإله أوجد العالم "عن قصد" لا ضرورة، وهذا ينفي كل اشتراك في الوجود بين الخالق والمخلوق.(٣٩) لكن بالنظر إلى محاولته لإثبات أهمية الأجزاء في إطار الكل أو في إطار اللانهائي الحاوي لكل الأضداد والأشياء المركبة ضمن إطار وحدته. فالإله يحوي كل شيء بداخله؛ لأنه فوق كل الأشياء؛ فهو اللانهائي الغير محدود الذي لا يرتبط بالعالم بل يحتويه. وهنا يجب التنويه على أن تناول الكوزي لمشكلة معرفة إنما هو من منظور فلسفي وليس من منظور لاهوتي مدرسي. لذلك يجب التأكيد على أن الإله كموضوع للمعرفة الفلسفية، يمكن التحقق منه وفق منظور الجهل الحكيم فحسب، والذي تتبدى فيه معرفة الإله بوصفه وحدة لا نهائية ترتبط بعملية ديالكتيكية، تُصوّر الإله بأنه محور وحدة الأضداد، كما تعتمد تلك الديالكتيكية على الانتقال من الإله إلى العالم للكشف عن وحدته اللانهائية، بوصفها انتقال من الوحدة إلى التعددية ومن اللامحدود إلى

---

36 - Charles H. Carman: Leon Battista Alberti and Nicholas Cusanus: Towards an Epistemology of Vision for Italian Renaissance Art and Culture, Routledge, London, 2016, p. 92.

37 - John W. Cooper: Op. Cit, p.53.

38 - Glenn Alexander Magee: Hegel and the Hermetic Tradition, Cornell University Press, New York, 2001, p 27.

٣٩ – يوسف كرم: تاريخ الفلسفة الحديثة، دار كلمات، القاهرة، ٢٠١٢م، ص ١٨.

المحدود، ويحدث كل ذلك وفق منهج ديالكتيكي جدلي، يرى الباحث جذوره كامنة في المنهجية السقراطية الديالكتيكية.

وإذا ما حاولنا النظر إلى فلسفة نيكولاس الكوزي من نافذة علم تاريخ الأفكار، فسوف نجده متأثراً بأفكار هيرقليطس التي تجمع بين الأضداد في جوهر واحد، وكذا فيثاغورت الذي يجعل معرفة الحكمة حكراً على الذين يستطيعون قراءة النظام الهندسي للكون والمهندس الصانع. وكذا نلتمس أثر القديس أنسلم في حديثه عن عدم إمكانية تصور ما هو أعظم من الإله المبدع، ذلك كله من ناحية. وندرك كذلك أثر الفكر الرواقي ولا سيما في حديثهم عن الوجود الواحد المتناغم والأفكار الصوفية عن الحجاب المعرفي ووحدة الوجود وحدة الشهود وتصور المحاسبي (٧٨١/٨٥٧م) على التصوف العقلي والفكر السيوصوفي الجامع بين الحكمة الوجدانية الحدسية والتصورات العقلية الفلسفية.

وإذا كان هذا هو الحال عند فيلسوفنا، فهل المعرفة ممكنة عنده؟ ونحن وفقًا لمنظور الكوزي ننطلق منطقياً من المعلوم إلى المجهول، لكن التقدم بهذه الطريقة وصولاً إلى الإله مستحيل؛ لأن بينه وبين كل شيء آخر فجوة كبيرة تمنع أي وصول، وهكذا، فإن الإله الشيء الأكثر يقينًا يظل مجهولاً لنا. في هذه المرحلة يكشف نيكولاس طريقة التحقيق التي تتجاوز الطريقة المعتادة في الفهم، ويطلق عليها "الفهم غير المفهوم" (غير قابل للتفسير).[٤٠]

وهنا نتساءل، إذا كان الطريق إلى فهم طبيعة وكينونة الإله غير متاحة للجميع وكذلك العلم اليقيني بها غير مؤكد أو مفهوم! فما الأدوات والوسائل التي يمكننا من خلالها التوصل إلي معرفة حقيقية عن الإله؟. بالنسبة للكوزي، كانت الهندسة أفضل علم يمكن استخدامه لفهم اللانهائي. وعندما نستعرض بعض عناوين الفصول المختلفة من (عن الجهل الحكيم)، مثل: خصائص الحد الأقصى، مفهوم الخط اللانهائي، الخط اللانهائي هو مثلث، الحد الأقصى للمثلث هو دائرة وكرة، بطريقة رمزية، يكون الحد الأقصى لكل الأشياء حيث إن الحد الأقصى هو وعاء كل الخطوط، والمعرفة العميقة لرمزية الخط اللانهائي، من فهم الرمزية إلى فهم المشاركة في الوجود، تشبيه المثلث اللانهائي بالثالوث الأقصى، وأيضًا ذكر أنه فيما يتعلق بالثالوث لا يمكن أن يكون هناك رباعية، أو خماسية، إلخ، تشبيه الدائرة اللانهائية بالوحدة في الإله.[٤١] وإذا كان هناك

40 - Erich Meuthen: Op. Cit, p.59.

41 - Mirosław Szatkowski: God, Time, Infinity, edited by Rafael Hüntelmann, and others, first edition, Walter de Gruyter GmbH & Co KG, Germany , 2018, p 193.

خط لا نهائي، فسيكون خطًا مستقيمًا، ومثلثًا، وسيكون دائرة، وسيكون كرة؛ لأن صفة اللانهائية تؤهله لاستيعاب كل الأشياء.

وقد سعى الكوزي من وراء كل تلك التعبيرات الهندسية إلى إيضاح كيف يمكن أن يكون الانتقال إلى ما وراء المحدود نحو اللانهائي في الهندسة عن طريق القياس المطبق لفهم العلاقة بين الكائنات المخلوقة وخالقها. وهنا يجب التأكيد على نقطة مهمة وجوهرية وهى أن الكوزي كان أول من أظهر من فلاسفة العصر الوسيط أن التفكير في اللانهائي لم يكن دائمًا غير منطقي تمامًا، من ناحية أخرى فقد مهد الطريق لحساب التفاضل والتكامل ورياضيات السلسلة المتصلة في العصر الحديث. لذلك يبدو أن الكوزي هو اللاهوتي المسيحي الذي حازت الرياضيات بالنسبة له على أعلى مكانة في المداولات الميتافيزيقية.(٤٢)

على هذه الفرضية لعبت الرياضيات دورًا مهمًا، بل وأساسيًا في فكر نيكولاس، وكانت بالنسبة له مثالًا ونموذجًا لكل المعرفة البشرية الحقيقية؛ فهى تعطي أفضل معرفة ممكنة وموثوقة؛ هذا لأنه في الرياضيات يستخدم العقل والأرقام التي تم إنشاؤها بواسطته دون أي إتصال بالواقع المادي المتغير. في الواقع فإن الأرقام من نطاق سلطة العقل فقط وتحاكي نشاط الإله"، وهكذا فإن الإله الذي خلق كل الأشياء من حيث العدد والوزن والقياس، رتب العناصر بترتيب رائع، فالرقم يتعلق بالحساب، والوزن للموسيقى، والقياس للهندسة.(٤٣) وهو هنا ينتهج نهجًا غير الذي انتهجه القديس أوغسطين وأستاذه أمبروزيوس (ت٣٩٧م) وحديثه عن التناغم الكوني وحين وضع اللاهوت في تراتبية صارمة للوجود يعتلي الإله قمة هرمها، بوصفه علّة الموجودات وعلّة نفسه، وقدم تصورًا ملتبسًا لله من حيث كونه غير قابل للفهم والإحاطة بحجة لا تناهي الذات الإلهية قياسًا على الذات الإنسانية؛ لكن الكوزي وظف الرياضيات بوصفها ممارسة تجريدية تحرر الذهن من المحسوسات للوصول إلى الإله المتعالي.(٤٤)

نتيجة لذلك اقتنع بأن المعرفة البشرية ليست سوى تقريب للحقيقة أو افتراض (coniectura)، وتُنسب إلى المعرفة الرياضية أعلى درجات الدقة والوضوح، وبتتبع تعاليم بؤثيوس Boethius ٤٨٠– ٤٢٤م، ادعى أن الرياضيات تهيئ العقل البشري بأفضل طريقة للاعتبارات

---

42 - Ibid: p. 194.

43 - Roman Murawski: Between Theology and Mathematics. Nicholas of Cusa's Philosophy of Mathematics, 2016 Studies in Logic, Grammar and Rhetoric, Volume & Issue: Volume 44 (2016) - Issue 1 (March 2016), p 99.

٤٤ – الحسان سليماني: جدلية التعالي والمحايثة في الفلسفة الحديثة نقد سبينوزا للأصول الأرسطية والأسس الديكارتية للتعالي الإلهي، تبين للدراسات الفكرية والثقافية، قطر، عدد ٢٥ يونيو ٢٠١٨، ص١٠.

اللاهوتية.(٤٥) فأي عملية فكرية تفترض مسبقًا استخدام الأرقام، ويعني التفكير العد والقياس والمقارنة، ويتم التعبير عن أي معرفة بشرية بالأرقام، ومن ثم فإن العدد هو طابع لا غنى عنه للعقلانية البشرية.(٤٦) لذلك تبنى الكوزي التقسيم الثلاثي الكلاسيكي للعلوم النظرية وفقًا لتقاليد الأكاديمية الأفلاطونية: الفيزياء والرياضيات(والموسيقى) واللاهوت. وأقر أن الأشياء الرياضية هي وسيطة بين الحقائق المادية المتغيرة والطبيعية والواقع الذي يعامله اللاهوت. وموضوعات الرياضيات – على الرغم من كونها أكثر تجريدًا من عناصر الإدراك الحسي – لا تخضع للتغيير وتتصف بالثبات والصدق؛ لأنها تستند إلى قوة العقل وحده وهي العلة الحقيقية للتناغم بين الموجودات.(٤٧)

ولتبرير قناعته بشأن الدور الذي تلعبه الرياضيات في علم اللاهوت، يكفي الاستشهاد بعناوين الفصلين (الحادي عشر والثاني عشر) له (عن الجهل الحكيم): ففي الفصل الحادي عشر يذكر أن الرياضيات تساعدنا بشكل كبير في فهم مختلف الحقائق الإلهية؛ ويذكر في الفصل الثاني عشر الطريقة التي يجب أن تستخدم بها العلامات الرياضية في معارفنا، ويؤكد معرفة الرياضيات أمر لا غنى عنه للقدرة على التفكير في الإلهيات.(٤٨) وهنا تظهر المعرفة بوصفها نسبة مقارنة "وكل استفسار مقارن يستخدم وسائل العلاقة المقارنة"، وكل استفسار مقارن، بشكل أكثر تحديدًا، يستخدم التناسب، المعنى الأساسي للكلمة، وهو ينشأ في الرياضيات: ولكن بما أن العلاقة المقارنة تشير إلى اتفاق في أحد الجوانب وفي نفس الوقت تشير إلى شيء آخر، فلا يمكن فهمها بشكل مستقل عن الرقم، وعليه فإن العدد يشمل جميع الأشياء المتعلقة نسبيًا؛ ففي الرياضيات، "النسبة" هي اسم العلاقة بين أرقام المقياس عندما تكون النسبة بينهما متطابقة، وفهم "النسبة" كنتيجة يتم الحصول عليها من خلال قسمة الواحد على الآخر، وتعبر هذه النتيجة عن عدد مرات المقسوم عليه الواردة في المقسوم. على سبيل المثال، النسبة ٤: ٢ هي ٢ لأن ٢ تناسب ضرب ٢ مرتين فتساوي ٤، بالطريقة نفسها فإن نسبة ١٦: ٨ هي ٢في ٢ في ٢في ٢ تساوي ١٦، في مقياس معين، حيث النسبة بين كل رقم والعدد التالي هي نفسها (على سبيل المثال، السلسلة ٢، ٤، ٨، ١٦، ٣٢، ٦٤ التي تكون النسبة فيها أ)، تسمى العلاقة بين رقم واحد والآخر من حيث النسبة "نسبة". إذن، كيف تتقدم المعرفة العقلانية عندما تكون الأداة التي تستخدمها متناسبة؟ أولاً، حقيقة أن النسبة بين الأرقام هي نفسها دائمًا تعني أننا نعرف دائمًا أيهما سيكون الرقم التالي من

[45] - Roman Murawski: Op. Cit, p 99.
[46] - Ibid: p 100.
[47] - Ibid: p 100.
[48] - Mirosław Szatkowski: Op. Cit, P 192.

السلسلة.[٤٩] وبالنظر إلى العناصر ٢ و ٤ و ٨ و ١٦ و ٣٢ و ٦٤، نعلم أن العنصر التالي سيكون ١٢٨. ونعلم أيضًا أن التسلسل يمكن أن يتقدم إلى ما لا نهاية. هذا التقدم، الذي يتقدم من المعروف إلى المجهول ممكن؛ لأنه بمجرد تحديد النسبة، يتم تحديد العناصر التالية أيضًا.[٥٠]

مما سبق، قد يفهم المرء ما هي النسبة التي تُعتبر أداة لدراسة الأرقام، لكن الكوزي يقرها بشكل أكثر توسعًا، حين يذكر أن المعرفة البشرية إجمالاً تستخدم النسبة، وهذا هو نفس القول بأن المعرفة البشرية تتقدم من خلال إقامة علاقات بين شيئين أو أكثر على أساس نسبة مشتركة، أي قياسها باستخدام وحدة تكمن وراءها جميعًا. وهنا يعتقد الكوزي أنه في كل مقارنة توجد حالة وحدة واختلاف، وتشير جميع أوجه التشابه والاختلاف التي يجدها العقل عند المقارنة إلى وحدة هي مقياس المقارنات جميعًا.[٥١] ومن هنا جاء قوله: إن كل استفسار مقارن يستخدم وسائل العلاقة المقارنة. الآن عندما يمكن مقارنة الأشياء التي تم التحقيق فيها عن طريق تتابع نسبي وثيق مع ما يعتبر مؤكدًا، فإن حكمنا يمكن فهمه بسهولة، ولكن عند القيام بالعديد من الخطوات الوسيطة تنشأ الصعوبة ويحتاج الأمر إلى عمل شاق، ويتم التعرف على هذه الخطوات في الرياضيات، حيث يمكن تتبع الافتراضات السابقة بسهولة تامة إلى المبادئ الأولى الأكثر وضوحًا، ونظرًا لأن الاقتراحات اللاحقة يتم تتبعها بصعوبة أكبر؛ لأنها يتم تتبعها فقط من خلال وساطة الافتراضات السابقة؛ لذلك يتم إجراء كل تتبع عن طريق علاقة مقارنة، سواء أكانت سهلة أم صعبة. لكننا نلاحظ أن اللانهائي، اللامحدود، غير معروف؛ لأنه يتحرر من كل العلاقات المقارنة. ولكن بما أن العلاقة المقارنة تشير إلى اتفاق في بعض الجوانب وفي نفس الوقت تشير إلى شيء آخر، فلا يمكن فهمها بشكل مستقل عن العدد، وفقًا لذلك يشمل العدد جميع الأشياء ذات الصلة نسبيًا؛ لذلك فإن العدد، وهو شرط ضروري للعلاقة المقارنة موجود ليس فقط في العلاقات الكمية ولكن أيضًا في جميع الأشياء سواء في الاتفاق أو الاختلاف، بشكل جوهري أو عرضي؛ ربما لهذا السبب اعتبر فيثاغورس أن كل الأشياء مكونة ومفهومة من خلال قوة التناغم وثبات العلاقة بين الثابت والمتحول في الأرقام (الإله هو المسيح هو الروح القدس) وهذا المثال يوضح أن الثابت في النظام والمتعدد في الهيئة.[٥٢]

بالطبع لا يستطيع تفكيرنا المعتمد على إدراك المفاهيم استيعاب هذا التقارب في الأرقام اللانهائية، لكن العقل يجبرنا على الاعتراف به. بهذا "نلمس" اللانهاية الإلهية، والتي كأقصى ما

[49] - Paula Pico Estrada:Nicholas of Cusa on the Trinitarian Structure of the Innate Criterion of Truth, Op. Cit, p 108.
[50] - Ibid: p. 109.
[51] - Ibid: p. 109.
[52] - Nicholas of Cusa on Learned Ignorance De Docta Ignorantia , Op. Cit, p1, ch1, p4.

يمكن بالضرورة تتجاوز كل ميادين الوجود. ومن ثم يجب أن يتقارب كل شيء في هذا اللامحدود؛ لتصبح اللانهاية في الواقع أكبر بمجرد أن تُفهم بطريقة متناقضة على أنها محدودة، وعندما يكون كل ما يتقارب أكثر تناقضًا يكون العكس تمامًا، وبالتالي فإن اللانهائية الإلهية هي "مصادفة الأضداد" (الصدفة المتناقضة)، واللانهائي هو الحد الأقصى والحد الأدنى في نفس الوقت، وهذا هو أعلى شكل ممكن من أشكال المعرفة التي يمكننا تحقيقها، أي الاعتراف المماثل بمعرفة أننا لا نعرف، وهذا يرفعنا إلى ما وراء حدود ما يمكن تصوره.[٥٣] بذلك أقر الكوزي بأهمية الرياضيات عملية المعرفة؛ لأنها تنقلنا إلى أعلى درجة من درجات الرمزية المجردة، لكن يجب العلم أنها لن تحقق العلم اليقيني في النهاية؛ لأن الإله خارج نطاق المعرفة أو التفكير، لذلك وجب على العقل أن يستنير بنور الإيمان في النهاية وأن يعترف بمقدار جهله، هنا فحسب يحصل على العلم الحقيقي.

ولا تخفى الخلفية الفيلونية الفيثاغورية الأفلاطونية في ما قدمه الكوزي، سوآء على المستوى المنهجي أم في القياس؛ فمنهجيًا يتضح أن الجدل الصاعد يتحقق بالممارسة الرياضية لتطهير الذهن من أدران عالم المحسوسات وتمرينه على تعقل المجردات باعتبارها مثُلاً في عالم مفارق "حقيقي"، أما القياس فيتجلّى في الوصول إلى المطلق، أي الإله بمسالك ليست تجري مجرى الدلائل العقلية، إنما تتحقق بالإيمان المطلق الذي وصفه الكوزي بالصحة والصدق.[٥٤] كما أن هناك تأثير أفلاطوني أخر هو وصفه للكون على أنه سلسلة من التسلسلات الهرمية، تقطع وتتغلب على المسافة الفاصلة بين الإله والبشر؛ لذلك يجب وضع أي فهم لعمل العقل في فكر الكوزي في سياق المفهوم الأفلاطوني للمشاركة (المحاكاة أو الصورة) حيث تكون الأشكال المتعددة أساسًا صورًا للمثال الأول؛ فأفلاطون -الذي لم يعبأ كثيرًا بالعالم المادي- رأى أن الكثرة تنعكس أو مستوعبة في النموذج الأصلي أو المثال الأول. حيث يرى العقل أن تلك الكثرة المتعلقة بالعالم المحسوس المتغير يتم استيعابها في فكرة المثال أو النموذج الأول والتي يمكننا تصورها بوصفها تتقارب تدريجياً نحو فكرة عليا. بالنسبة للكوزي - مع أفلاطون- يظل هذا التقدير للفرد أساسًا لمعرفة أي شيء معين (أي اللاهوت في الناسوت، والناسوت لا يفترق عن اللاهوت).

وهنا نلاحظ أن عمل الكوزي ينشأ بشكل مباشر ضمن تعاليم اللاهوت السلبي، بدمج عناصر من تعاليم الأفلاطونية المحدثة والإسمية، حيث ينطلق من اعتقاد راسخ يقضي إلى الفصل الجذري بين الإله والخلق، والذي ينتج عنه عدم قابلية الإله للوصف مطلقًا. ويعد هذا ركنًا من

---

53 - Erich Meuthen: Op. Cit, p.60.

٥٤ – الحسان سليماني: مرجع سابق، ص١٠.

أركان نظريته عن الجهل الحكيم، والذي يتمثل في الاعتراف بتمايز حقيقي بين وجود الإله ووجود الوجود الخلق المحدود. ومع ذلك فإن ما يميز الكوزي عن التقليد الصوفي الغارق في السلبية هو أنه بالنسبة له، فإن التعارض بين وجود اللانهائي والمحدود "لم يعد مجرد افتراض دوغمائي فحسب؛ بل يجب فهمه في العمق النهائي وإدراكه من خلال شروط المعرفة البشرية. وتتمثل خطوته الأولى – أي الجهل الحكيم – في السؤال ليس عن الإله، ولكن عن إمكانية إقامة معرفة حقيقية عن الإله.(٥٥) وكما هو الحال مع التقاليد الأفلاطونية المحدثة والمسيحية في الحديث عن السمو الإلهي، بالنسبة للكوزي، فإن المبدأ الأساسي أو الوضع الأساسي للتعبير عن الإله هو من خلال المجاز أو الاستعارة أو التشبيه.(٥٦) من داخل هذا المنعطف الإبداعي المعرفي، يبدأ فكر الكوزي في الابتعاد عن المثالية الزهدية البحتة للتقليد الصوفي لصالح مفهوم بنّاء أكثر إيجابية للمعرفة يرتكز على الحرية الإبداعية.(٥٧)

من هنا رأى الكوزي أن الجهل الحكيم لا يجلب فقط معرفة معينة، وإن كانت سلبية، للحقيقة (اللانهائية وما يترتب على ذلك من عدم الفهم)، بل يعلم أيضًا شيئًا عن العقل البشري وحدوده، فإذا كان العقل لا يتعلم أشياء جديدة إلا من خلال المقارنات، فإنه يخضع بالضرورة لمبدأ عدم التناقض، الذي ينص على أنه من أجل مقارنة شيئين يجب تحديد شيء واحد والتمييز على الآخر على أنه "أخر، وبالتالي لا يمكن أن يكونا نفس الشيء في نفس الوقت. وهو يرى أن هذا النوع من الإجراءات، الذي ينتج عن طبيعة العقل ذاتها، مفيد لفهم أشياء مادية ولكنها تحد من إدراك العقل للحقيقة؛ لأن الحقيقة لا نهائية وبالتالي فهي تتجاوز كل معارضة وتناقض.(٥٨) ونظرًا لأن اللانهائية الإلهية والمطلق يتجاوزان القدرات الفكرية البشرية، فإن الطريقة الوحيدة التي يمكن للبشر من خلالها الحصول على فكرة خافتة عن وجود الإله المطلق هي عن طريق نوع من عدم المعرفة، حيث على الرغم من أننا نفهم، فإننا غير قادرين على إعطاء أسس لمثل هذا الفهم.(٥٩) وهنا يرغب الكوزي في التأكيد على أن كمال وتمام قدرة العقل تتمثل في توقفه عن التفكير واعترافه بجهله وعدم فهمه، وهنا يأتي دور التخمين أو الحدس؛ فالإله غير مُدرك وغير معلوم بالنسبة لنا،

55 - Philip Rose: Nicholas of Cusa Human Nature and the Image of God, Dalhousie Review, Volume 82, Number 1, Canada, 2002, p 131.

56 - Philip Rose: Op. Cit, p 132.

57 - Ibid: p 131.

58 - Ibid: p.107.

59 - Brady Wagoner, Ignacio Brescó de Luna, Sarah H. Awad: The Psychology of Imagination: History, Theory and New Research Horizons, IAP, Italy, 2017, p 18.

ويُعرف من خلال الجهل، وفي ذلك تأثر واضح بالرؤية التي طرحها ديونيسيوس الأريوباجي في لاهوته السلبي، والتي تحمل في طياتها أثر أفلوطيني حيث الكل يرتد إلى الواحد في الوقت نفسه.

وفقًا لذلك تتفوق كل التركيبات الدقيقة في الأشياء المادية وما يرتبط بها من معروف إلى مجهول على العقل البشري – حتى إن سقراط بدأ بنفسه بقول إنه لا يعرف شيئًا سوى أنه لا يعرف، وأكد سليمان الحكيم أن كل الأشياء صعبة وغير قابلة للتفسير بالكلمات، وقال رجل أخر أن الحكمة وقاعدة الفهم مخفية عن أعين كل الأحياء، حتى أرسطو أكد في فلسفته الأولى أن في الأشياء الواضحة بطبيعتها تحدث هذه الصعوبة بالنسبة لنا مثل بومة ليلية تحاول النظر إلى الشمس، لذلك إذا كانت النقاط السابقة صحيحة، فعندئذ وبما أن الرغبة فينا ليست كذلك عبثًا، ونرغب في معرفة أننا لا نعرف، إذا تمكنا من الوصول إلى هذا –معرفة جهلنا–؛ فإننا سنصل إلى الجهل الحكيم؛ فالإنسان – حتى لو كان على درجة كبيرة من التعلم – لن يحقق شيئًا أكثر كمالًا من أن يتعلم أكثر في الجهل الذي يميزه، وكلما عرف أنه غير مدرك كلما تعلم أكثر.[٦٠] وإذا تمكنا من الوصول إلى معرفة جهلنا هذا سنصل إلى الجهل الحكيم. فالإنسان – حتى لو كان على درجة كبيرة من التعلم لن يحقق شيئًا أكثر كمالا من أن يتعلم أكثر في الجهل الذي يميزه، وكلما عرف أنه غير مدرك تعلم أكثر.[٦١] فكمال التفكير في وقوف التفكير، فالجهل الحكيم معرفة العقل لحدوده، واعتقاده بالوحدة المطلقة وراء هذه الحدود، وأن مبدأ عدم التناقض ليس المبدأ الأعلى، وليس الجدل العلم الأعلى الذي يخضع له العقل والإيمان، على ما يريد الإسميون؛ بل تكون النقائض والأضداد ملازمة لعلمنا بالمتناهي، ولكنها تمحى في اللانهاية؛ فالخط المنحني إذا صححنا انحناءه إلى ما لا نهاية، جعلناه كالخط المستقيم، وإذا فرجنا الزاوية القائمة في المثلث إلى ما لا نهاية، اختلط وترها بالضلعين الآخرين، ومتى اعتبرنا الحركة كأنها سكونات متتالية اتفقت مع السكون، وهكذا في جميع الأضداد.[٦٢]

وهنا يجب التنويه على نقطة غاية في الأهمية، وهي أن الجهل الحكيم لا يساوي الجهل. وإذا كان الأمر كذلك، فلن يتم إشباع الرغبة الطبيعية للإنسان في الحقيقة؛ لذلك يسمي الكوزي الجهل الحكيم "التعلم الأقصى، أي تعلم أكبر ما لا يمكن أن يكون هناك غيره. وبهذا المعنى، فإن الجهل الحكيم هو الحكمة المطلقة، وفي الوقت نفسه هو الحد الأدنى من التعلم أو الخطوة الأولى نحو الحكمة، وكل المعرفة البشرية تحدث في إطار الجهل الحكيم، أي من قبول أن الحقيقة غير

60 - Nicholas of Cusa on Learned Ignorance De Docta Ignorantia , Op. Cit,, p4, ch1, p.5,6.

61 - Brady Wagoner, Ignacio Brescó de Luna, Sarah H. Awad: Op. Cit, p. 18.

٦٢ – يوسف كرم: مرجع سابق، ص ١٨.

محدودة وبالتالي لا يمكن فهمها. وهكذا فإن التعلم الأقصى، وهو تجربة لحدود العقل البشري، يقودنا إلى الحديث عن الحد الأقصى في الجهل المقدس ".[٦٣]

إذن نستخلص مما سبق أن الجهل الحكيم يعني القدرة على التعبير عن المعرفة الكاملة المتمثلة في إدراكنا بصفة رئيسة لقدرات عقلنا المحدودة عن الإله، وأن قمة العلم تكمن في إدراك قدراتنا التي تجعلنا على قناعة تامة بجهلنا. لذلك يجب أن تنطلق الفلسفة في حل أسئلة الإله والعالم، بصفة خاصة من الجهل الحكيم الذي يعني عدم قابلية قياس مفاهيمنا وأفكارنا عن الإله اللانهائي من النهائي المحدود داخل تصوراتنا؛ فالعالم محدود نهائي بينما الإله مطلق لانهائي ولا يخضع أو يقبل للفهم، لذا وجب علينا أن ندرك مدى جهلنا. وهذا ينقلنا إلى الحديث عن مفهوم الحد الأقصى المطلق باعتباره ركيزة من ركائز تصوراتنا عن الإله.

- العقل الإنساني وتصور **الحد الأقصى.**

في بداية كتابه عن الجهل الحكيم استعار الكوزي صيغة أنسلم Anselm (١٠٣٣–١١٠٩م) الشهيرة ("الموجود الذي لا يمكن تصور أعظم منه") كنقطة انطلاق لوصف الإله بأنه الحد الأقصى الذي يتطابق مع الحد الأدنى؛ لأنه لا يوجد ما يعارضه.[٦٤] "لكن الكوزي يتجاوز أنسلم ليحاجج بأن الحد الأقصى هو أيضًا الحد الأدنى في نفس الوقت.[٦٥] لإيضاح ذلك يجب عرض رؤية الكوزي من خلال ما كتبه في هذا الصدد، وهنا نجد الكتب الثلاثة للجهل الحكيم تصف ثلاث طرق للنظر إلى هذا الحد الأقصى: أولاً: يوجد الحد الأقصى في حد ذاته في الوحدة على أنها الحد الأقصى المطلق، وثانيًا: يظهر ذلك الحد الأقصى في الكون على أنه الحد الأقصى المركب الذي لا يوجد بشكل مستقل عن التعددية التي يوجد فيها، وثالثًا: يوجد في المسيح باعتباره الحد الأقصى المطلق والمركب في نفس الوقت.[٦٦] ففي الكتاب الأول، في الفصل الثالث من "عن الجهل الحكيم"، يستخدم الكوزي استحالة تربيع الدائرة لإثبات عدم قدرة المحدود، أي العقل البشري الموجود في عالم الصيرورة، على معرفة اللانهائي المطلق أو الإله بدقة.[٦٧] ولكن على الرغم من أن العقل البشري لا يستطيع معرفة الحد الأقصى المطلق بدقة، فإنه عن طريق الأشكال الرياضية، يمكن للعقل البشري، المتميز عن الخيال والإدراك الحسي بامتلاكه نسبة من العقلانية أن يصعد بشكل متعالي "إلى العقل البسيط" مبتعدًا عن الأشياء المحسوسة.[٦٨]

63 - Paula Pico Estrada: Op. Cit, p.106.

64 - James L. Heft, Reuven Firestone, Omid Safi: Learned Ignorance: Intellectual Humility Among Jews, Christians and Muslims, Op. Cit, p.39.

65 - William F. Wertz, Jr.: The Method of Learned Ignorance, Op. Cit,, p.40.

66 - Ibid: p.39.

67 - William F. Wertz, Jr.: Op. Cit, p.40.

68 - Ibid: p 41.

ويستند مفهوم نيكولاس لمثل هذا الصعود العقلي بشكل صريح إلى مناقشة أفلاطونPlato (٤٢٧ ق.م – ٣٤٧ ق.م) في الكتاب السادس للجمهورية، الذي ينص على أن هناك أربعة مستويات من الإدراك: الخيال، والإدراك الحسي، والعقلانية (المنطق)، والفكر الإبداعي، ويعبر المستوى الأخير عن القدرة التي تميز الإنسان عن الحيوان، وتعرفه على أنه مخلوق على صورة الخالق أو نظرًا لطبيعته الإلهية، لكن كما يشير الكوزي فإن العقلانية المجردة؛ لأنها غير قادرة على الجمع بين "المتناقضات في بدايتها"، فهي عاجزة عن الصعود إلى رؤية الإله الذي هو الحد الأقصى والأدنى في نفس الوقت. ويجادل الكوزي بأنه "إذا قمت بتحرير الحد الأقصى والحد الأدنى من الكمية – عن طريق الإزالة الذهنية للكبير والصغير – فسترى بوضوح أن الحد الأقصى والحد الأدنى يتطابقان؛ لتوضيح ذلك يشير إلى استحالة تربيع الدائرة؛ لأنه إذا قمت بوضع حدود لمضلع حول دائرة، وقمت بإنشاء المزيد من الجوانب يصبح المضلع أصغر، وإذا قمت بتسجيل مضلع في دائرة وقمت بزيادة عدد الأضلاع يصبح المضلع أكبر، ولن يصل أي من المضلعين إلى الهوية المطلقة أو المساواة مع الدائرة؛ لأنه يمكن أن يصبح دائمًا أقل في حالة المضلع المحدود أو أكبر في حالة المضلع المدرج، مما يعني أن محيط الدائرة، الذي له طبيعة نوع ما مختلفة عن المضلع، هو بالتالي الحد الأدنى والحد الأقصى في نفس الوقت.[٦٩] فالإله هو مركز الدائرة، وهو لا يخضع للقياس أو التحديد، ولكنه يحوي كل قياس وكل تحديد، وهو موجود في كل مكان وفي أي مكان. ولذلك هو يصوّر الإله باعتباره كيانًا حاضرًا في كل الأشياء غير منفصل عن العالم المادي بل يحتويه.

وإذا كانت غايتنا الوصول إلى الحد الأقصى المطلق عن طريق المتناهي، فينبغي لنا في المقام الأول، أن ندرس الأشكال المتناهية الرياضية من حيث هي كذلك، أي بوصفها مزيجًا من القوة والفعل، ثم علينا بعد ذلك أن نعزو إليها الكمالات المقابلة للأشكال اللامتناهية، وعلينا أخيرًا، بطريقة أكثر سموًّا أن نعزو كمالات الأشكال اللامتناهية إلى اللامتناهي في حد ذاته، وهذا ما لا يمكن التعبير عنه بأي شكل، وبالتالي نصبح تائهين، وعندما نتحسس طريقنا في الظلام سوف ينير لنا جهلنا الطريق بصورة غير مفهومة؛ ليمكننا من تكوين مفهوم أكثر صحة وصدقًا عن المطلق.[٧٠]

وهكذا يستخدم نيكولاس هذا المثال الرياضي كاستعارة لحقيقة أن الإله، إذا قورن بدائرة، لا يمكن وصفه بمصطلحات كبير أو صغير. علاوة على ذلك، إذا كنت تريد أن ترى الإله من زاوية

69 - Ibid: p 41.

٧٠ – جيمس كولينز: الإله في الفلسفة الحديثة، ترجمة فؤاد كامل، دار آفاق، القاهرة، ص ١٤.

الأدنى والأقصى، عليك أن تحرر نفسك من المفاهيم المقارنة للأكبر أو الأصغر. ثم كتب في الفصل الخامس أن الوحدة لا يمكن أن تكون عددًا؛ بل إن الوحدانية هي بداية كل عدد؛ لأنها الحد الأول وهي نهاية كل عدد؛ لأنها الحد الأقصى لذلك نلاحظ أن النقطة التي يشير إليها هي أن الإله واحد والعدد يفترض الوحدانية؛ لأن العدد هو تكاثر الوحدانية، وبدون الوحدة لا يوجد عدد.(٧١)

من هنا يتوصل الكوزي إلى أن كل شيء مركب ومادي إلا المطلق، وذلك باستخدام مصطلح "مركب" في مقابل "مطلق"، يصنع هنا نفس التمييز الذي قام به الإسكولائيون بين الإله خالق الكون والكون المخلوق. فما هو مركب يتجذر عن المطلق ويحاكيه، ولكونه مخلوقًا فإن وجوده مشروط وبكثرة بعينها، لذا يمكن التعبير عن لانهائيته بشكل محدد لا مطلق. فالمركب مشتق من المطلق ويقلده، ولكن لأنه مخلوق فهو موجود عرضي وبتعددية معينة، لذلك يتم التعبير عن اللانهاية الخاصة بالمركب بشكل محدود وليس مطلقًا، وفي هذه الحالة يمكن للكون المادي نفسه أن يتطور إلى ما لا نهاية من خلال قدرة الإنسان اللامتناهية على مفهوم المزاوجة، لكن لا الإنسان ولا الكون يمكن أن يصبحا مساويين للإله.(٧٢) وقد وضع الكوزي بذلك قاعدة رئيسة تميز الكون عن الإله، فالإله هو الحالة الأكثر كمالًا، بل هو المطلق وهو الوحدة التي تحتوى كل تعددية، عكس الكون الذي يظهر ويتحدد من خلال تلك التعددية في حالة تميزه عن الإله، ولذلك وضع الكوزي تلك القاعدة واعتبرها مقياسًا رئيسًا لاختلاف الكون المحدود عن الإله المطلق غير المحدود.

كما تطرق الكوزي إلى عرض الموضوع بشكل ميتافيزيقي منهجي، حين أقر أيضًا أن الكون نشأ من مبدأ فريد يسميه "الحد الأقصى"، باستخدام مفردات تنتمي إلى الرياضيات كما أشرنا، وبما أن المقصود من الكلمة هو الإشارة إلى أن المبدأ الأول هو أعظم مما يمكن أن يكون، ولا يجب أن يُنظر إلى شيء أخر على أنه لانهائي ومطلق، ولا يوجد أي حد أخر غير الحد الأقصى يمكن أن يحد منه. إذن الحد الأقصى هو واحد لا نظير له ومطلق، ووحدته المطلقة تعني أن لا شيء يمكن أن يكون خارجه، لذلك كل شيء مطوي فيه. إنه كما يقول كوزا مركب كل الأشياء وحاويها.(٧٣) وبالتالي يشمل ذلك الحد الأقصى كل شيء سواء ما هو موجود بالفعل أو ما يمكن أن يكون. هذا الأخير مع ذلك لا يتم تضمينه في الحد الأقصى بشكل افتراضي أو احتمالي

71 - William F. Wertz, Jr.: Op. Cit p 41.
72 - Ibid: p. 42.
73 - Paula Pico Estrada:Nicholas of Cusa on the Trinitarian Structure of the Innate Criterion of Truth, Op. Cit, p.23.

ولكن في أقصى درجة من الواقعية. الواقعية التي هي على سبيل المثال طريقة وجود البذرة بالنسبة للنبات، والتي تعني الانتقال من حالة وجود إلى أخرى، وبالتالي التحول، ثم الغيرية. لكن الحد الأقصى هو الهوية الخالصة، وهكذا تتطابق الإمكانية والواقعية إلى أقصى درجة في الحد الأقصى، الذي تكون وحدته اللانهائية فوق أي معارضة.(٧٤) لذلك يقول كوزا: "بما أنني سأناقش أقصى قدر من التعلم عن الجهل، يجب أن أتعامل مع طبيعة الحد الأقصى. الآن أعطي اسم الأقصى "Maximum" لذلك الذي لا يمكن أن يكون هناك شيء أعظم منه، والذي يتمتع بأقصى قدر من الوحدة. وهكذا فإن الوحدانية تتزامن مع العظمة أيضًا. ولكن إذا كانت هذه الوحدة خالية تمامًا من كل مخالطة أو تركيب، فمن الواضح أنه لا يوجد ما يعارضها؛ لأنها ذروة مطلقة، وهكذا فإن الأقصى هو المطلق الذي هو كل شيء، وكل شيء في الأقصى؛ لأنه الأعظم. وبما أنه ليس هناك ما يخالفها، فإن الحد الأدنى أيضًا يتطابق معها، وبالتالي يكون الحد الأقصى أيضًا في كل الأشياء، ولأنها مطلقة فهي في الواقع كل كائن ممكن ولا تتداخل مع أي شيء من الأشياء، وكلها مشتقة منها.(٧٥)

وكما أن الحد الأقصى المطلق هو الكائن المطلق، والذي من خلاله تكون كل الأشياء هي ما هي عليه، لذلك من الوجود المطلق توجد وحدة عالمية للوجود يتم التحدث عنها على أنها "الحد الأقصى المركب من المطلق، والتي تستمد وجودها من ماديتها الكونية المركبة، وتتمثل وحدانية هذا الحد الأقصى المركب –أي الكون– في التعددية، ولا يمكن أن توجد بدون التعددية. وفي الواقع يشمل هذا الحد الأقصى في وحدته العالمية كل الأشياء، بحيث تكون كل الأشياء المشتقة من الحد الأقصى المطلق في هذا الحد الأقصى المركب وهذا الحد الأقصى موجود في كل هذه الأشياء. ومع ذلك فهي لا توجد بشكل مستقل عن التعددية التي توجد فيها؛ لأنها لا توجد بدون تركيب، ولا يمكن التحرر منها.(٧٦) تكون كل الأشياء المشتقة من (الحد الأقصى المطلق) في هذا الحد الأقصى المركب وهذا الحد الأقصى في كل هذه الأشياء. وبهذه الطريقة يميز نيكولاس بين اللانهاية المطلقة لدى الإله واللانهائيات الرياضية والزمانية والمكانية التي تميز الكون. وهو ما يفيد أن الحد الأقصى المطلق فقط هو غير محدود بشكل سلبي. ولكن بما أن الكون يشمل كل الأشياء ما دون الإلهية، فلا يمكن أن يكون غير محدود بشكل سلبي، وبالتالي تشمل اللانهاية المطلقة (الإلهية) جميع الأقطاب اللانهائية المحدودة الأخرى.(٧٧)

---

74 - Ibid: p.24.
75 - Nicholas of Cusa: on Learned Ignorance, Op. Cit p.4, ch1, p. 6.
76 - Nicholas of Cusa: on Learned Ignorance, Op. Cit, p4, ch1, p.p 6, 7.
77 - John W. Cooper: Panentheism--The Other God of the Philosophers: From Plato to the Present, Op. Cit, p.54.

وفقًا لتلك النظرة نرى أن الكون على اتساعه محاطًا بالإله، لذلك هناك حاوى واحد لكل الأشياء؛ لأنه لا يوجد سوى حد أقصى واحد يتطابق معه الحد الأدنى ويتوافق معه، ولا يتعارض الاختلاف المنطوي مع تعدد الهويات؛ لأن عملية الانكشاف برمتها هي عملية جدلية: يطرح فيها كل نمط من الوجود نقيضه فقط ليتم لم شمله، تمامًا كما تسبق الوحدة التعدد، هكذا أيضًا النقطة تسبق الحجم، السكون يسبق الحركة، والذاتية تسبق الاختلاف، والمساواة تسبق اللامساواة، وكل هذه الأشياء قابلة للتحويل مع الوحدانية التي هي الخلود نفسه.[٧٨] هنا يجب على الشخص الذي يرغب في فهم المعنى أن يرتقى بعقله فوق معنى الكلمات بدلاً من الإصرار على الدلالات المناسبة للكلمات التي لا يمكن تكييفها بشكل صحيح مع مثل هذه الألغاز الفكرية العظيمة. ويُفيد كل هذا في إظهار أن الجهل الحكيم له أساسه في المسلمة التي تنص على أن الحقيقة الدقيقة تظل غير مفهومة.[٧٩]

إذن جعل نيكولاس تلك القاعدة بمثابة أساس لتقبل عملية المعرفة عن المطلق، فالاعتراف بجهلنا قمة المعرفة وقمة الحكمة، وهو يمثل قاعدة ينطلق منها العقل البشري المحدود لمحاولة فهم المطلق غير المحدود. ولذلك يقول كوزا:" نظرًا لأن الحد الأقصى غير المحدود والمطلق (الذي لا يمكن أن يكون أكبر منه) أكبر مما يمكننا فهمه؛ لأنه الحقيقة اللانهائية، فإننا لا نحققه إلا بطريقة غير مفهومة؛ لأنه نظرًا لكونه ليس من طبيعة تلك الأشياء التي يمكن أن تكون أكبر وأقل نسبيًا، فإنه يتجاوز كل ما يمكننا تصوره. لأن كل الأشياء التي تدركها الحواس أو العقل تختلف في داخلها وفي علاقتها ببعضها البعض، تختلف بطريقة لا توجد فيها مساواة دقيقة فيما بينها. لذلك فإن المساواة القصوى التي لا تختلف عن أي شيء ولا تختلف عنه تفوق كل فهم، وبما أن الحد الأقصى المطلق هو كل ما يمكن أن يكون فهو حقيقي تمامًا. ومثلما لا يمكن أن يكون هناك أكبر، لذلك لنفس السبب لا يمكن أن يكون هناك أقل؛ لأنه كل ما يمكن أن يكون. لكن الحد الأدنى هو الذي لا يمكن أن يكون أقل منه. وبما أن الحد الأقصى هو كذلك، فمن الواضح أن الحد الأدنى يتطابق مع الحد الأقصى، وستصبح النقطة السابقة أكثر وضوحًا لك إذا ربطت بين الحد الأقصى والأدنى في الكمية. فالكمية القصوى كبيرة إلى أقصى حد والكمية الأدنى صغير جدًا؛ لذلك إذا قمت بتحرير الحد الأقصى والحد الأدنى من الكمية – عن طريق إزالة الكبير والصغير ذهنيًا – فسترى بوضوح أن الحد الأقصى والحد الأدنى يتطابقان. لذلك ليس الأمر أن

78 - Ibid: p.54.
79 - Nicholas of Cusa : Op. Cit, p 8, ch1, p7.

الكمية المطلقة هي الكمية القصوى وليس الكمية الدنيا لوجود تزامن للحد الأدنى مع الأقصى في هذا.(٨٠)

بذلك يعبر نيكولاس عن رفضه لإمكانية وجود لغة تناظرية عن الإله من حيث العلاقة المترابطة للسمو والذاتية الإلهيتين. ما هو واحد تمامًا، الأقصى، هو "الكمال" بقدر ما يفهم كل شيء. فالإله باعتباره الحد الأقصى المطلق لانهائي، والمقارنة بينه وبين الشيء المحدود مستحيلة بالنظر إلى تطابق الحد الأقصى مع كل الأشياء؛ لأن "هذه الوحدة خالية تمامًا من كل علاقة أو تركيب. هذا إذن هو تبريره لعدم قدرته على الاقتراب من الإله من خلال العملية العقلية العادية للتشبيه أو مقارنة المجهول بالمعروف؛ لأنه لا يمكن للعقل المحدود أن يتخيل ما هو غير محدود، وبالنسبة للعقل البشري، يؤدي التعالي إلى سر الإله وعدم القدرة على التحدث عنه بطريقة عادية؛ لأن اللغة التي تقيس اللامحدود بالمحدود لا يمكن أن تقودنا أبدًا إلى الإله. (٨١) فنحن لا نصل إلى الحد الأقصى ببساطة؛ لذلك لا يمكن للعقل المحدود أن يصل إلى حقيقة الأشياء بدقة عن طريق التشابه. فحقيقة الحد الأقصى لانهائية وغير قابلة للتجزئة؛ فهي دائمًا خارجة عن متناول المرء، وبالتالي فهي غير مفهومة.(٨٢) وبذلك يُصبح الإله هو الحد الأقصى المطلق، ليس بمعنى أنه أعظم من خليقته فحسب، ولكن بمعنى تجاوز كل ما هو أقل أو أعظم بلا حدود، ووحدة الإله هي التي تنبع منها التعددية والعلاقات المقارنة.(٨٣)

ومن وجهة النظر الميتافيزيقية واللاهوتية، يؤدي عدم اكتمال الكون المخلوق إلى مشكلة مفادها، أنه إذا كان الحد الأقصى المطلق من جانب هو الهدف النهائي لكل كائن والكون ككل، ومن ناحية أخرى لا يمكن لأي كائن مخلوق أن يبلغه، فإن هذا يعني أن الخلق سيفتقر إلى الكمال الذي هو وقف على الإله.(٨٤) ويتجلى عدم الاكتمال هذا حتى في البشر، الذين هم مخلوقات مميزة؛ لأن العقل البشري في بساطته هو صورة للحد الأقصى المطلق بدلاً من كشف وحدته في العديد من الأشياء، كما هو الحال في الكون المركب، وعلى الرغم من حالته الاستثنائية، فإن العقل البشري، مثله مثل بقية المخلوقات لم يعطِ وجودًا لنفسه وبالتالي فهو مقيد بالحدود. فنحن تميل عقولنا نحو الحقيقة، ولكن الحقيقة كما هي في حد ذاتها تظل بعيدة المنال، وحتى نصل من

80 - Ibid: p 11, ch1, p 8,9.
81 - Nancy J. Hudso: Becoming God: The Doctrine of Theosis in Nicholas of Cusa, Op. Cit,, p 98.
82 - Ibid: p. 99.
83 - K. Meredith Ziebart: Nicolaus Cusanus on Faith and the Intellect: A Case Study in 15th-Century Fides-Ratio Controversy, BRILL, Netherlands, 2013, p.p 15, 16.
84 - Paula Pico Estrada: Op. Cit, p.27.

الوجود المحدود إلى الحد الأقصى اللامتناهي، نحتاج إلى مزيد من العمل على أنفسنا.(٨٥) وبالتالي وجب علينا أن ندرك أن اللانهائي فوق التعارض والأضداد؛ لأنه الحد الأقصى المطلق، وبالتالي فهو دائمًا أكبر من أي شيء أخر بما في ذلك الوجود.(٨٦) وكل شيء "مُستوعب" بداخله دون أي تمييز فعلي في الحد الأقصى للوجود، فهو الحاوي لكل الأشياء والمفاهيم المتمايزة.(٨٧) وبالنظر إلى تلك الفكرة تحديدًا نجد أن لها صدى في الفكر القديم خاصة الفيثاغوري والأفلاطوني اللذين وضعا الوحدة في مقابل اللانهائي وافترضا بذلك وجود مبدأين هما العقل والمادة، لكن الكوزي عارض ذلك وأقر أن اللانهائي يجمع في داخله كل المتناقضات؛ لذلك قال أن الحد الأقصى اللانهائي غير المحدود يحوي الحد الأدنى ويستوعبه، بل يستوعب الأشياء المادية المركبة، وكل ما يُعد نقيضًا له فهو يحتويه، وكل الأشياء تتطابق معه، وبناء على تلك الرؤية قال بأن الأضداد هي من صفة الأشياء المحدودة، أما الحد الأقصى فهو الحاوي لكل الأضداد وهو لا نهائي وغير محدود، ولذلك لا يوجد ما يعارضه.

لذلك يظهر الكون كله مترابط وفقًا لترتيب تدريجي؛ وهذا هو التسلسل الهرمي. ولكن هذا التسلسل يعمل وفق رؤية معينة لا تسمح بالتجاوز أو التداخل، تبعًا لخصائص وصفات كل نوع. فالكائنات العاقلة تتحرك وتشعر، وكذلك الحيوانات تتكاثر وتعيش كما تفعل النباتات، وإذا تم ترقية نوع من الرتب الدنيا من الكائنات إلى الاتحاد مع الحد الأقصى، فسيكون هذا الكائن هو الإله نفسه، لكن إذا حدث ذلك فهذا نقص في الكمال الإلهي وهو أمر مستحيل، فإذا وحّد ذاته مع صخرة على سبيل المثال، فسيفتقر إلى الحياة والمشاعر وحتى الفكر والعقل؛ لذلك من الضروري أن يكون الكائن الذي يوحده الإله مع ذاته هو ذلك النوع من الوجود الذي له أكبر مشاركة مع الإله من مجموع الكائنات الأخرى، ولا يخفى هنا ذلك الأثر التوماوي، الذي أقر بأن الإنسان لديه أكبر مشاركة مع الطبيعة الإلهية لما يتمتع به من قدرات عقلية، تلك القوة تتحقق في الطبيعة البشرية فحسب، التي يسميها الكوزي "الطبيعة الوسطى"، وهي النوع الوحيد المناسب للارتقاء إلى الاتحاد مع الحد الأقصى المطلق؛ لأنها تتمتع بالطبيعة الفكرية والعقلانية وتدرك كل الأشياء بطبيعتها الذاتية؛ لذلك كان القدماء على حق في تسمية الإنسان بأنه عالمًا مصغرًا أو عالم صغير؛ لهذا السبب فقط ترتفع الطبيعة البشرية إلى الاتحاد مع الإلهي وبالتبعية سترفع تلك الطبيعة الكون كله أيضًا.(٨٨) لذلك تحظى الطبيعة الإنسانية العاقلة بمرتبة خاصة بين المخلوقات وفق مخطط الخلق،

85 - Ibid: p.28.

86 - Dmitri Nikulin: Dialectic and Dialogue, Stanford University Press,U.S.A, 2010, p.55.

87 - Dmitri Nikulin: Dialectic and Dialogue, Op. Cit, p.56.

88 - Paula Pico Estrada: Op. Cit, p.29.

بحيث يمكن وصف تلك الطبيعة بأنها "فوق هرمية"؛ فهي مزيج مركب مؤلف من جسم وعقل تجمع في داخلها عامل مشترك وسط بين الطبيعي والإلهي تجمع الكون بأكمله. فهو الكائن الوحيد الجدير بالصعود والارتقاء إلى الاتحاد مع اللانهائي، وبالتالي يتحقق فيه كمال الطبيعة وكمال المطلق، وقد تحقق ذلك في شخص واحد يمكنه أن يصعد إلى الاتحاد مع الحد الأقصى المطلق، "وبالتأكيد سيكون هذا الكائن بطريقة ما إلهي وبطريقة أخرى بشري، ولم يتحقق اتحاد البشرية والألوهية إلا في شخص يسوع المسيح الذي حلّ فيه اللاهوت في الناسوت.(٨٩)

لذلك تعامل الكوزي بإسهاب مع فكرة الإيمان في الكتاب الثالث من كتاب الجهل الحكيم، حيث يكون الإيمان موضوعًا للتقصي وعنصرًا عمليًا، وبعد تقديم المصطلحات المبتكرة بعمق في الميتافيزيقيا من خلال التركيز على الحد الأقصى المطلق، أي الإله نفسه، والحد الأقصى المركب أي الكون، كتب الكوزي عن نوع ثالث من الحد الأقصى المطلق والمركب، والمعقد والبسيط، واللانهائي وغير المحدود. وقد استخدم العقل ليشير إلى أنه إذا كان هذا الحد الأقصى موجودًا فسيكون إنسانًا وإلهًا في الوقت نفسه.(٩٠) من ناحية أخرى فإن هذه الحجة ترتكز على الأسفار المقدسة وتؤكدها؛ لأن الرسل وصفوا المسيح بدقة على أنه إنسان وإله. لذلك يظهر المسيح بوصفه الحد الأقصى الثالث، وهكذا يبدو أن التحليل العقلاني والإيمان بالوحي الكتابي يتوافقان ويعزز كل منهما الآخر في هذه النقطة.(٩١) فقد شمل المسيح بحكم طبيعته البشرية جميع درجات الوجود، وقد امتلك الطبيعة الوحيدة المخلوقة التي يمكن الارتقاء بها إلى الاتحاد مع الإله. هذا الاتحاد ضروري للكون ليحقق الكمال الذي لا يستطيع تحقيقه بطبيعته المركبة بمفردها، وبالنسبة لكوزا هذا ليس مجرد استنتاج منطقي يتطلبه التفكير الافتراضي ولكنه حقيقة حدثت تاريخيًا، وهو يضع يسوع المسيح في مركز تفكيره الميتافيزيقي، مما يعني أيضًا أنه وفقًا لرسامته المسيحية، فإن اتحاد الطبيعة البشرية والإلهية في يسوع ليس مجرد نتيجة للسقوط. بينما يلعب تجسد الكلمة دوره الخلاصي التقليدي في علم الكونيات الكوزي، بحيث لا تتعارض هذه الوظيفة الخلاصية مع حقيقة أن الإله أصبح إنسانًا ليرتقي بالخلق إلى الكمال.(٩٢)

هنا يجب أن نلاحظ حقيقة أن تجسد المسيح كان ضروريًا لخلاصنا. لقد خلق الإله كل الأشياء من أجله، وخلقهم إلى أقصى وأكمل حد من أجله فحسب، ومع ذلك لا يمكن أن يتحدوا به؛ لعدم وجود علاقة مقارنة بين المحدود واللانهائي. لكن بالمسيح وحده تجد كل الأشياء نهايتها في

89 - Paula Pico Estrada: Op. Cit p. 30.
90 - Simon J.G. Burton, Joshua Hollmann, Eric M. Parke: Nicholas of Cusa and the Making of the Early Modern World, Op. Cit, p 234.
91 - Ibid: p 235.
92 - William F. Wertz, Jr.: The Method of Learned Ignorance, Op. Cit, p.31.

الإله؛ لأنه ما لم يكن الإله قد أخذ طبيعة بشرية، باعتبارها شيئًا وسيطًا، تحوي في حد ذاتها أخرى؛ فلن يكون الكون كاملاً ولن يكون موجودًا بالفعل، لذلك كتب القديس بولس في رسالته إلى أهل كولوسي أن "كل كنوز الحكمة والمعرفة مخبأة في المسيح." الَّذِي هُوَ صُورَةُ الإله غَيْرِ الْمَنْظُورِ، بِكْرُ كُلِّ خَلِيقَةٍ. [١٦]فَإِنَّهُ فِيهِ خُلِقَ الْكُلُّ: مَا فِي السَّمَاوَاتِ وَمَا عَلَى الأَرْضِ، مَا يُرَى وَمَا لاَ يُرَى، سَوَاءٌ كَانَ عُرُوشًا أَمْ سِيَادَاتٍ أَمْ رِيَاسَاتٍ أَمْ سَلاَطِينَ. الْكُلُّ بِهِ وَلَهُ قَدْ خُلِقَ.(٩٣)وبالمثل يقول الرسول يوحنا:" كل شيء به كان، وبدونه لم يكن شيء مِمَّا كَانَ. [٤]فِيهِ كَانَتِ الْحَيَاةُ، وَالْحَيَاةُ كَانَتْ نُورَ النَّاسِ".(٩٤) نستنتج من ذلك أن معرفة المسيح هي المفتاح الضروري لفهم الإله والكون المادي والإنسان.(٩٥)

من جهة أخرى ربط الكوزي صراحةً الإيمان بالمسيح بعقيدة الجهل العقائدي بالإشارة إلى صعود بولس في الرسالة الثانية إلى أهل كورنثوس١٧: ٢، وذلك حينما اقترب بولس من المسيح أدرك جهله، وهذا الشعور ببعده عن الإله هو في حد ذاته نوع من معرفة الألوهية، وبالمثل – وفقًا لكوزا– لا يمكن للناس أن يعرفوا المسيح حقًا طالما أنهم متعلقون ومنغمسون في العالم المادي؛ فالمؤمن يصل إليه في البداية بالإيمان، ثم بالجهل المكتسب، لذلك لا يمكننا بلوغ المسيح في نقاوته؛ لأننا لا نستطيع إلا أن نسمع صوت الإله من خلال رؤية ضبابية أقل كثافة "كما نرى الآثار الإلهية في وسائله المقدسة في إشارات الأنبياء والقديسين".(٩٦) فيسوع المسيح، هو الشخص الذي يحوي كل كنوز الحكمة والمعرفة، ونظرًا لأن فكرة الكوزي عن يسوع المسيح هي أنه كلمة الإله وبالتالي هو السبب الأقصى، فإن هذا جزء لا يتجزأ من الفكرة القائلة بأنه من خلال الاقتداء بالمسيح يرتفع المرء إلى مستوى العقل الإبداعي وبالتالي يصبح قادرًا على التصرف كعالم مصغر على الكون أو العالم الكبير ككل.(٩٧)

ولا يقتصر تناول الكوزي لقضية المسيح بوصفها سرد عقائدي لشخص المسيح بناءً على ما ورد في الكتاب المقدس فحسب، بل يسعى لشرح كيفية ظهور مفهوم يسوع من خلال التحقيق في طبيعة الكون بمعالجة فلسفية.(٩٨) لذلك يشغل المسيح حيزًا كبيرًا في فكره، فقد أقر بأن التجسد (أي اندماج الطبيعة الإلهية والبشرية) وسيلة رئيسة ساهمت بالتغلب على مشكلة القرون الوسطى

---

[٩٣] – القديس بولس: الرسالة إلى أهل كولوسي ١: ١٥: ١٧.

[٩٤] – إنجيل يوحنا: الإصحاح الأول ١: ٥.

[95] - William F. Wertz, Jr.: Op. Cit p.40.

[96] - Simon J.G. Burton, Joshua Hollmann, Eric M. Parke: Op. Cit p 237.

[97] - William F. Wertz, Jr.: Op. Cit p.40.

[98] - K. Meredith Ziebart: Op. Cit,, p.15.

المتأخرة الخاصة بتحديد العلاقة بين القوة الإلهية المطلقة والخلق.[٩٩] وباختصار فإن اتحاد الطبيعة البشرية والإلهية في شخص يسوع المسيح قد تم تحديده مسبقًا منذ الأزل ليحدث في الوقت المناسب بنعمة الإله.[١٠٠] تلك النقطة بالتحديد هي حجر الأساس في فلسفة العصر الحديث، والتي وفقًا لها إذا كان الكلمة قد تجسد حتى لو لم يخطئ آدم، فعندئذٍ يجب أن يكون الكلمة المتجسد هو مبدأ كل الخليقة – الذي به وُجد كل شيء – ولأنه "السطوع المنعكس للنور الإلهي"، هنا فحسب يجد العقل البشري في حد ذاته ما يحتاجه لتكوين واستخلاص المفاهيم.[١٠١]

مما سبق نرى أن النقطة الرئيسة التي بنى عليها الكوزي تصوّره عن طبيعة الكائن اللانهائي الغير محدود تبدأ من تمييزه بين اللانهائي المطلق واللانهائي المركب و اللانهائي المحدود. والتي توصل من خلالها إلى فكرة أن الإله هو اللانهائي المطلق من خلال الصعود من تأثيرات الإله كما رأينا في خلقه للكون المادي، ووسيلة هذا التأثير هو المسيح الذي يحمل صفات الطبيعتين الإلهية والبشرية؛ ليحقق الكمال المرجو، كما يحدث هذا التأثير أيضًا من خلال افتراض فرضية معينة، ثم ينتقل منها إلى الفرضية الأعلى من خلال عملية الصعود من الفرضية إلى الفرضيات الأعلى وصولًا إلى أعلى الفرضيات في النهاية. وهو في هذا الجانب يشبه إلى حد كبير طريقة الجدل السقراطي، الذي يعتمد على التخلّي عن الفرضيات غير المرغوبة والانتقال منها إلى الفرضية المهمة، وهكذا حتى بلوغ النتيجة المرجوة.

والجدير بالإشارة أنه على الرغم من عبقرية فيلسوفنا في تلك الصياغة اللغوية التوفيقية لطبيعة الإله المطلق ووجود المسيح المحدود ظاهرياً في صورة جسدية فأننا رغم ذلك الجهد لا يمكننا التسليم بهذا التصور المتناقض من جهة أو إنكار تأثر نيكولاس بالعديد من الأنساق الفلسفية والعقدية السابقة عليه. فحديثه عن تصور الموجود الذي يفوق كل المعارف البشرية للكمال والجمال وصورة الإله فإننا نجده يعود ويصرح بأن ذلك التصور قد استحال وأصبح موجوداً مرئياً محسوساً في صورة المسيح دون مبرر عقلي ويُجيز للمطلق المجرد أن يتحول إلى محسوس جزئي نسبي حتى إن كان ذلك التواجد له ما يبرره من مقدمات خطابية إيمانية أو حدسية.

وعلى الجانب الأخر من تحليلنا لبنية نظرية نيكولاس المبررة للوجود المطلق الذي لا يمكن تصور أعظم منه في شخص يسوع المسيح يحدثنا علم تاريخ الأفكار عن وجود بنيات نسقية فلسفية وعقدية تتداخل مع تلك النظرية نذكر منها نظرية بارمنيدس (٥٤٠–٤٨٠ ق.م)

[99] - Simon J.G. Burton, Joshua Hollmann, Eric M. Parke: Op. Cit, p 231.
[100] - Paula Pico Estrada: Op. Cit, p.p 30, 31.
[101] - Ibid: p. 104.

عن الموجود الواحد الأول والوجود وما يحويه من كثرة، وإذا ما انتقالنا إلى الفكر الصيني سوف نجد حديث لأوتسي (٦٠٤–٥٣١ ق.م) عن الطاو الذي يمثل نقطة المركز والمحور في دائرة الكمال وهو الواحد الحاوي للكثرة. ونمضي مع علم تاريخ الأفكار إلى الفكر العقدي الإسلامي حيث التأكيد على كمال وجود الله وعظم صفاته المنزهة عن التشبية وكذا حديث الفقهاء والمتكلمين والفلاسفة المسلمين عن علاقة الواحد بالكثرة والدليل الرياضي على وجود الله مع تبرير جهل العقل الإنساني بحقيقة ذات الله مع التسليم عقلاً بوجوده المنزهه وذلك عن طريق التأمل في قدرته على وجود كل ما يحويه الوجود.

ولا نستبعد أن يكون فيلسوفنا قد إضطلع على ذلك الزخم من الأنساق والتصورات ونستدل على ذلك بثقافته الموسوعية التي أكدتها كتابات معارضيه قبل مؤيديه.

- **خاتمة:**

انتهى الباحث من قرائته لتصور نيكولاس الكوزي عن الجهل الحكيم السابق إلى عدة نتائج قد أشرنا إلى بعضها خلال عرضنا النقدي لبنية حديثه، أبرزها:

١– طور الكوزي رؤية جديدة عن مفهوم الإنسان، يمكن أن تُصنف على أنها من النظريات المؤسسة لمفهوم المعرفة الإنسانية في العصر الحديث وهي غلبة الاهتمام بالإنسان ، والإيمان بإمكانياته اللامحدودة، بحيث يمكن وصف الإنسان فيها بأنه عالم مصغر مسئول عن مزيد من تطوير الكون، كمبدع مسؤول عن الخلق المستمر. وذلك وفق رؤية تعتمد على فهم تطور النظرة إلى تعاليم المسيح، وفق مفهوم التجسد الذي يؤدي بالضرورة إلى فهم طبيعة حقيقة الإنسان من خلال الارتقاء إلى مستوى الفكر في الاقتداء بالمسيح، الذي به خُلقت كل الأشياء وبصفته السبب الأقصى الذي يُشتق منه العقل من جهة أخرى، لذلك حملت نظرته طابعًا كريستولوجيًا يتجذر في الإيمان والمعرفة العميقين بالمسيح.

٢– حملت رؤية الكوزي عن الجهل الحكيم جانبًا إبداعيًا مميزًا حاول فيها الصعود والسمو بعقل القارئ إلى مستوى رفيع يفوق مستوى الأرقام الرياضية، مشيراً بذلك إلى قدرات العقل البشري غير المحدودة؛ نظرًا للأثر الإلهي فيه، مع إدراك أن تحقيق العقل للمعرفة مشروط باستعانته بنور الإيمان والذي يعالج أي قصور في الناحية العقلية، وهو ما لم يبعده كثيرًا عن خط العصر الوسيط.

٣– لم يكن الجهل الحكيم عند الكوزي يعني عدم المعرفة أو نقصانها؛ بل هو كمال وتمام المعرفة التي يدركها الإنسان، عندما يعلم حدود وإمكانيات قدرته العقلية على العلم، وأن هناك قوة مطلقة لا يمكن لعلمنا المحدود إدراكها، من ذلك يصبح الاعتراف بالجهل قمة العلم، ولم يخف في هذا الأثر السابقين عليه من فلاسفة ولاهوتيين.

٤- حوت نظرية الكوزي عن الجهل الحكيم بعض المؤثرات الصوفية المسيحية أبرزها الأفلوطينية المحدثة المتغلغلة في كتابات أثناسيوس (٣٧٣م) الشارح الأكبر للنصوص الإنجيلية والرسائل البوليسية، وتأثيرات ديونيسيوس الأريوباجي، وجون اسكوت أريجينا، ومستر إيكهارت وغيرهم من متصوفي العصر الوسيط. حين أقر أن أفضل طريقة لوصف الإله تكمن في اللاهوت السلبي الذي ينفي عن الإله كل شبيه أو مثيل، لذلك جاءت تعاليمه مختلفة بشكل ملحوظ من الناحية الفكرية عن النظرة النمطية الدوجماطيقية للفلسفة المدرسية في العصر الوسيط، من ناحية إعلانه "الجهل الحكيم" نوعًا رئيسًا من أنواع المعرفة، مسايرًا بذلك نمط المسيحية الشرقية الذي رأى أن الرب مختلف عن أي شيء آخر. وانتهى نيكولاس إلى القول بعدم إمكانية معرفة الإله، نظرًا لكماله وسموه وتعاليه، فهو محتجب وممتنع عن أي إدراك.

٥- لم تبتعد نظرية نيكولاس عن الجهل الحكيم في منهجها عن منهج الجدل السقراطي، وكذلك المنهج الأفلاطوني الذي يعتمد على رد الكثرة إلى الوحدة، وذلك حين بدأ بالتمييز بين اللانهائي المطلق واللانهائي المركب واللانهائي المحدود، ثم توصل إلى فكرة أن الإله هو اللانهائي المطلق، الذي يتحقق الوصول إليه من خلال الصعود من تأثيراته في الكون المادي في نطاق الحد الأقصى المطلق والحد الأدنى المحدود، فهو يفترض فرضية معينة ثم ينتقل منها إلى الفرضية الأعلى من خلال عملية الصعود من الفرضية إلى الفرضيات الأعلى، ثم إلى أعلى الفرضيات في النهاية.

المصادر والمراجع:

أولًا: المصادر

أ–المصادر الأجنبية:

Nicholas of Cusa on Learned Ignorance De Docta Ignorantia , Book I, edited by Paul Wilpert, revised by Hans G. Senger. Second edition, The Arthur J. Banning Press, U.S.A , 1985.

ثانيًا: المراجع

أ–العربية والمترجمة إليها:

جيمس كولينز: الإله في الفلسفة الحديثة، ترجمة فؤاد كامل، ط١، دار آفاق، القاهرة، ٢٠١٩م.

يوسف كرم: تاريخ الفلسفة الحديثة، دار كلمات، القاهرة، ٢٠١٢م.

ب– الأجنبية:

Brady Wagoner, Ignacio Brescó de Luna, Sarah H. Awad: 1- The Psychology of Imagination: History, Theory and New Research Horizons, IAP, Italy, 2017.

Charles H. Carman: Leon Battista Alberti and Nicholas Cusanus: 2- Towards an Epistemology of Vision for Italian Renaissance Art and Culture ،Routledge, London, 2016.

Chibueze C. Udeani : 3- Communication Across Cultures: The Hermeneutics of Cultures and Religions in a Global Age, The Council for Research in Values and Philosophy, U.S.A, 2008.

Clayton J. Drees: 4- The Late Medieval Age of Crisis and Renewal, 1300-1500: A Biographical, Greenwood Publishing Group, U.S.A, 2001.

David Albertson: 5- mathematical Theologies: Nicholas of Cusa and the Legacy of Thierry of Chartres, (Oxford Studies in Historical Theology) 1st Edition, Oxford University Press, U.S.A, 2014.

Dmitri Nikulin: 6- Dialectic and Dialogue, Stanford University Press, U.S.A, 2010.

Erich Meuthen 7- :Nicholas of Cusa: A Sketch for a Biography, translate by David Crowner, CUA Press, U.S.A, 2010.

Etienne Gilson: 8- The Unity of Philosophical Experience, Charles Scribner's Sons, New York, 1950.

Glenn Alexander Magee: 9- Hegel and the Hermetic Tradition, Cornell University Press, Ithaca, New York, 2001.

Glenn Alexander Magee: 10- Hegel and the Hermetic Tradition, Cornell University Press, New York, 2001.

James L. Heft, Reuven Firestone, Omid Safi: Learned Ignorance: 11-Intellectual Humility Among Jews, Christians and Muslims, Oxford University Press, USA, 2011.

John W. Cooper: 12- Panentheism--The Other God of the Philosophers: From Plato to the Present, Baker Academic, Italy, 2006.

Julian Marias: 13-History of Philosophy, Courier Corporation, U.S.A, 2012.

K. Meredith Ziebart: 14- Nicolaus Cusanus on Faith and the Intellect: A Case

Study in 15th-Century Fides-Ratio Controversy, BRILL, Netherlands, 2013.

Karsten Harries: 15- Nicholas of Cusa. On Learned Ignorance, Yale University, U.S.A, 2015.

Louise Nelstrop ،Simon D. Podmore: 16- Christian Mysticism and Incarnational Theology: Between Transcendence and Immanence, Routledge, London & New York, 2016.

Michael Edward Moore: 17- Nicholas of Cusa and the Kairos of Modernity: Cassirer, Gadamer, Blumenberg, punctum books ¬ brooklyn ny, New York, 2013.

Mirosław Szatkowski: 18- God, Time, Infinity, edited by Rafael Hüntelmann, and others, first edition, Walter de Gruyter GmbH & Co KG, Germany , 2018.

Nancy J. Hudson: 19- Becoming God: The Doctrine of Theosis in Nicholas of Cusa, The Catholic University of America Press Washington, D.C., U.S.A, 2007.

Paula Pico Estrada: 20- Nicholas of Cusa on the Trinitarian Structure of the Innate Criterion of Truth, BRILL, Netherlands, 2021.

Peter A. French and Howard K. Wettstein ,and Bruce Silver.: 21- Nicholas of Cusa (1401–1464): First Modern Philosopher?, Midwest Studies in Philosophy, Volume XXVI, Blackwell Publishing, Oxford, 2002.

Philip Rose: 22- Nicholas of Cusa Human Nature and the Image of God, Dalhousie Review, Volume 82, Number 1, Canada, 2002.

Simon J.G. Burton, Joshua Hollmann, Eric M. Parker : 23- Nicholas of Cusa and the Making of the Early Modern World, BRILL, 2019.

William F. Wertz, Jr.: 24- The Method of Learned Ignorance, Schiller Institute, Inc. , U.S.A, Volume 4, Number 1, Spring,1995.

ثالثًا: المقالات العلمية:

أ–العربية:

الحسان سليماني: جدلية التعالي والمحايثة في الفلسفة الحديثة نقد سبينوزا للأصول الأرسطية والأسس الديكارتية للتعالي الإلهي، تبين للدراسات الفكرية والثقافية، قطر، عدد ٢٥ يونيو ٢٠١٨.

ب– الأجنبية:

Roman Murawski: Between Theology and Mathematics. Nicholas of Cusa's Philosophy of Mathematics, 2016 Studies in Logic, Grammar and Rhetoric, Volume & Issue: Volume 44 (2016) – Issue 1 (March 2016).

رابعًا: الموسوعات والمعاجم:

Henrik Lagerlund: Encyclopedia of Medieval Philosophy: Philosophy Between 500 and 1500, Springer Science & Business Media, Germany, 2010.